إمـيْـل زولا

نـفوسْ عَـارية

رواية

ترجمــة

سـامي غنيم

الكتاب: نفوسْ عَارية (رواية)

الكاتب: إمــيْـل زولا

ترجمة: سامي غنيم

الطبعة: ٢٠٢٣



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

زولا ، إمــيْـل

نفوسْ عَارية (رواية)/ إمــيْـل زولا, ترجمة: سامي غنيم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٦٨٨ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٣٣٤ / ٢٠٢٣

نفوسْ عَارية

رواية



وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الفصل الأول

كان الطريق مزدحمًا بالعربات حتى أنه لم يكن هناك بد من التوقف بين الحين والحين كيلا يقع أي صدام أو حتى مجرد إحتكاك بين العربات.

المكان.. هو الطريق الواسع المفضي من وإلى مدينة باريس من ناحية الجنوب، حيث تقع على مبعدة منه بحيرة كبيرة يصب فيها ذلك النهر العظيم الذي يخترق المدينة، وقد تعود أهل الطبقة العليا في ذلك الوقت من حكام ووزراء وحاشية الإمبراطور وأفراد الطبقة الغنية أو حتى المتوسطة التي تتمسح بأذيال الأثرياء وذوي النفوذ أن يخرجوا في أوقات العصر في نزهة أصبحت شبه تقليدية، يرفهون بها عن أنفسهم، وتكون فرصة لمن ترغب من السيدات في إستعراض معطف جديد، أو تسريحة شعر تفننت هي أو وصيفاتها أو حلاقها في إبداعها.. أو لتناقل إشاعة جديدة.. وفرصة ذهبية ينتهزها الرجال للتخلص من مضايقة زوجاتهم في المنازل أو للتطلع إلى الوجوه الجميلة لأهل الطبقة العليا..

قليلون هم الذين كانوا يهتمون بجمال الطبيعة رغم أنه لم يكن يوجد بتلك النزهة ما يستحق الإهتمام غير جمال الطبيعة. فالطريق عريض تحف به أشجار باسقة عالية كأنها حراس له، وخلفها إمتدت أراض زراعية على كلا الجانبين ضرب فيها المزارع الفرنسي بفأسه فنمت وربت وأينعت زرعًا

وخيرًا وفيرًا.. والبحيرة تقف على بعد كأنها لوحة إبدع فنان في رسمها، جمال ما بعده جمال لو نظر إليه إنسان بإخلاص لخر ساجدًا في خشوع.. إجلالًا لمبدع هذا الكون.

وكان الوقت فيما بين العصر والغروب.. والشمس قد هدأت حدة أشعتها وأصبحت دافئة في غير شدة، وإن زادت نسبة الإحمرار في صفرة أشعتها، فأصبحت في لون الذهب الخالص.. وأضافت بذلك معنى جديدًا لجمال الطبيعة.

وكانت السماء صافية.. لا يعكر صفوها سحابة أو ظل سحابه، بل لقد بدت كلوحة كبيرة خالية زرقاء أعدها فنان ليسجل عليه إلهاما ربانيًا، أو كأرض عذراء إكتست بزرقة ووقفت تنتظر يد زارع ماهر.. يعطيها بعض جهده لتعطيه حياته..

أما العربات نفسها، فكانت شبه مهرجانات كبيرة، أشكالها مختلفة وألوانها متعددة وإن غلب عليها جميعًا الذوق الأرستقراطي، ولمسات الغنى.. وكان يحلو لسائقيها أن يتباروا في السرعة فيلهبون ظهور الخيل التي تجر العربات فتنطلاق كالسهام بين ضحكات الراكبين، وما كان يتصرف السائقون هكذا من تلقاء أنفسهم، بل كان يدفعهم إلى هذا أسيادهم.. إما للتسلية، أو للمزاح، أو لإبراز العظمة ولفت الأنظار.

فإذا ما انتقلنا إلى راكبي العربات أنفسهم وجدناهم خليطًا كبيرًا من السيدات والرجال عجائزهم وشبابهم في ملابس مختلفة وأزياء أشد إختلافًا، وقبعات هي آخر ما وصلت إليه الإبتكارات ومجوهرات في جيد

الحسناوات وغير الحسناوات.. وإبتسامات على الشفاه ونظرات تكاد تخترق الملابس أحيانًا.. وتحية هنا وإيماءة هناك.. وكلمة إعجاب أو سخرية أو إستهجان تصدر عن أحد الراكبين أو الراكبات.. ولم تكن العربات كلها مقفلة يقبع راكبوها بداخلها مكتفين بالنظر خلال النوافذ الصغيرة على كلا الجانين.. بل إن البعض بالرغم من ميل الجو إلى البرودة – فضل أن يخرج في عربة مكشوفة ليرى ويرى وليستمتع أكثر،– وتلك كانت مجرد حجة– بجمال الطبيعة وهبات النسيم.

في إحدى تلك العربات، جلس ماكسيم وزوجة أبيه رينيه. هو في العشرين وهي في نحو الثلاثين أو قاربت عليها.. وكانت العربة فخمة.. أكثر فخامة من الكثير من العربات، وقد جلس إلى مقودها وأمسك بلجام الحصانين اللذين كانا ينطلق بهما سائق سمين يدل مظهره وملابسه المزركشة على مقدار ما لدى أسياده من ثروة.. وجلس بجواره خادم آخر مهمته هو فتح باب العربة أو إغلاقه.. علاوة على ما يدل وجوده عليه من مركز إجتماعى ممتاز..

ونظر ماكسيم إلى عربة أخرى كانت تسير على بعد، وقال:

– أنظري يا رينيه.. ها هي ذي عربة لورا أورينجي.. تلك العربة الزرقاء هناك.

ولما لم يجد إستجابة لملاحظه عند رينيه، صاح فيها يستحثها

– أنظري يا رينيه..

وكانت رينيه جالسة صامتة تنظر إلى ما حولها في هدوء وقد بدا عليها

أنها مغرقة في التفكر.. وقد أيقظتها ملاحظة ماكسيم من أفكارها فنظرت بلا حماسة إلى حيث أشار وقالت في فتور:

– لورا أورينجي!! لقد ظننت أنها اعتزلت الحياة العامة، وأصبحت تتحاشى الظهور أمام الناس.

وصمتت برهة، ثم قالت وهي توجه نظراتها إلى العربه الزرقاء التي أشار إليها مكسيم:

– لقد غيرت لون شعرها.. أليس كذلك؟

وأجاب مكسيم ضاحكًا:

– نعم.. فحبيبها الجديد يكره اللون الأحمر!

وكأنما قررت رينيه أن تسحب نفسها تمامًا من خضم التفكير الصامت الحزين الذي إستغرقت فيه ما يقرب من الساعة، وإستجابت لضحكة ماكسيم ورسمت على شفتيها إبتسامة كان من الواضح أنها غير طبيعية، ثم مدت قدميها في استرخاء وهي جالسة على مقعد العربة الخلفي وأسندت رأسها على المسند المثبت في ظهر العربية، وكانت ترتدي ثوبًا سماوي اللون محلى بتشكيلات لزهرة الياسمين باللون الأبيض، ومن فوقه معطف أبيض جميل فبدت آية في الأناقة.. وكان شعرها الناعم ينسدل على كتفيها وقد ارتدت قبعة صغيرة مزينة بعض اللآلىء بينما تدلى من عنقها عقد من الزمرد يعد في حد ذاته ثروة حقيقية.

وصمتت لحظة، ثم رفعت رأسها ناحية ماكسيم الذي كانت عيناه

مشغولتين بالتطلع إلى كل من يمر به من فتيات وسيدات في نظرات جريئة فيها نهم وعربدة.

وقالت له:

– قل لي يا مكسيم.. أتعتقد ان لورا لا تزال تحتفظ بشيء من الجاذبية؟. لقد سمعتك

أمس تطريها عندما كان بعض ضيوفنا يتحدثون عنها بمناسبة بيع مجوهراتها وبهذه المناسبة. هل رأيت الحلية الكبيرة ذات اللؤلؤة النادرة التي اشتراها لي والدك في المزاد؟

ورد مكسيم وهو يضحك:

– نعم.. فوالدي يحسن التصرف أحيانًا، ويضرب عصفورين بحجر واحد.. يبتكر الطرق التي يرضي بها زوجته، ويعطي لورا في الوقت نفسه ما تسوي به بعض ديونها.

وغمغمت رينيه وهي تبتسم وتهز كتفيها وقالت:

– يا لك من شيطان!

وبينما إنشغل ماكسيم بالتطلع إلى النساء، غرقت رينيه مرة ثانية في الصمت. ولم تنتبه إلى نفسها إلا عندما إقتربت من عربتها عربة أخرى مكشوفة، كانت تركبها سيدتان تبدو عليهما سيماء الترف أيضًا، وكانتا تضحكان في سعادة ولا مبالاة، وألقتا بالتحية إلى رينيه التي ردت عليهما بهزة من رأسها وإبتسامة على شفتيها، وكانت إحداهما هي مدام إسبانت

زوجة المركيز دي إسبانت أحد معاوني الإمبراطور وأحد الشخصيات البارزة في مجتمع الإمبراطورية الثانية، والأخرى مدام هافز، زوجة مسيو هافز أحد رجال الصناعة والرأسمالية الجديدة، وواحد من كبار أغنياء فرنسا.

وبعد أن انطلقت العربة المكشوفة براكبتيها أوشكت رينيه أن تغرق في صمتها مرة ثانية لولا ضحكة من ماكسيم أثارت إهتمامها فقالت:

– عم تضحك؟

وأجاب مكسيم:

– عما ذكرته عني منذ لحظة..

وردت:

– إني أعني حقًا ما أقول..

ونظر إليها الشاب نظرة ذات معنى وهو يقول:

– ما أشد غيرة النساء!!

ودهشت مما سمعت وقالت في إستغراب:

– أنا. غيورة !

ثم كأنها تذكرت ما يعنيه مكسيم فأضافت قائلة وهي تضغط على مخارج الكلمات لتزيدها تأكيدًا:

– آ.. أنت تعني لورا بلا شك، ولكن دعني أؤكد لك أن تلك المرأة المدينة

لا تستحوذ على أقل قدر من تفكيري أو اهتمامى.. وإذا كان والدك قد دفع لها بعض ديونها وأنقذها من الإفلاس فهذا لا يدل إلا على أنه ليس مغرمًا بالنقود إلى الحد الذي كنت أتصوره.. وأنت تعرف أني أترك لزوجي العزيز –والدك– مطلق الحرية في أن يفعل ما يشاء!!

وضغطت على كلمة «زوجي العزيز»، حتى لو أنها كتبتها لوضعت تحتها ثلاثة خطوط، وسكتت.. وبان على وجهها تفكير ممزوج بالحيرة.. حيرة منشؤها الفراغ..

وفقدت الرغبة في الإقبال على أية تسلية من التسليات الممكنة.. ثم قالت:

– إني في الواقع.. لكن لا.. أنا لست غيورة يا مكسيم.. مطلقًا.. ولكني برمة يكاد يقتلني الضيق.

وزمت شفتيها وسكتت.. وبعد برهة قالت لتكرر ما سبق أن قالت:

– كم أنا متضايقة.. إلى درجة الموت.

وعقب مكسيم في هدوء:

– لعل أعصابك متعبة..

وألقت رينيه برأسها على مسند العربية في ملل، ورددت:

– نعم.. إن أعصابي ليست على ما يرام.

ثم قالت كمن تحدث نفسها:

– إن العمر يتقدم بي.. يا طفلي العزيز.. ولسوف أبلغ الثلاثين قريبًا، وهذا أمر مزعج للغاية ولا يوجد في حياتي ما يبعث على البهجة أو السرور.. وأنت.. أنت إبن زوجي وإبن العشرين عامًا لا يمكن أن تفهم إحساس المرأة عندما..

وقاطعها مكسيم قائلًا:

– أنت تشكين!! إنك تنفقين أكثر من مائة ألف فرنك كل عام على ملبسك ومظهرك، وتقطنين في قصر منيف ليس في باريس كلها قصور كثيرة مثله.. وتملكين خيولًا مطهمة تجر عربتك لتزيد من قدرك بين الناس، والصحف تتابع أخبارك وتنشرها بجوار أخبار الإمبراطور ومجلس وزرائه، والنساء يحسدنك على شابك وجمالك، والرجال يخطبون ودك ويتمنون لو يفقدون عشر سنوات من عمرهم في سبل أن يقبلوا ذيل ردائك أو أطراف أناملك!! أليس ما أقول صحيحًا؟

وأومأت رينيه برأسها مصدقة على ما ذكره مكسيم الذي استمر يقول:

– هيه.. لا تكوني متواضعة.. إعترفي بأنك أحد أعمدة الإمبراطورية الثانية.. إن أحدنا لا يخفي عن الآخر سرًا، فأنت حيثما تتوجهين.. إلى منازل الوزراء أو أصحاب الملايين.. تصبحين ملكة المجالس بلا نزاع.. ولا توجد أي تسلية تصعب عليك.. وإذا لم يمنعني إحترامي لك من أن أقول...

وتردد عن إكمال جملته بل وغيرها بجملة أخرى بديلة قائلًا:

– ثم تشكين من الضيق والملل!! بالله عليك.. ماذا تريدين إذن.. أي

شيء على وجه الأرض تحلمين به؟

وهزت كتفيها في حيرة الذي لا يعرف الإجابة على السؤال. وإستطرد مكسيم قائلًا:

– كان يحسن أن نخرج في عربة مكشوفة.. حتى تستطيعى أن تندمجي أكثر في جو النزهة وتنسي أفكارك. أنظري. إن معظم الناس يعرفونك.. ويحيونك.. ناس تحت أقدامك.. ناس يتمنون منك نظرة أو كلمة.. أنظري.. إن مسيو دى موسى لا يتورع من إرسال قبلاته لك عبر الهواء..

وكان هناك رجل يبدو عليه إنه من ذوي الشأن يمتطي جوادًا، ويسير بالقرب من العربة وكان ينظر إلى رينيه ويرسل لها إشارات بيديه ليجذب إنتباهها ولكنها لم تعره أي إهتمام، بل إنها لم تكلف نفسها حتى مجرد النظر ناحيته.

وهز مكسيم كتفيه وقال:

– هل وصلنا إلى هذا الحد.. حسنًا لكن.. يا إلهى.. إنك تملكين كل شيء.. فماذا تريدين أكثر من ذلك؟

ورفعت رينيه رأسها إليه، وقالت في أسى:

– أريد شيئًا يختلف عن كل هذا..

وعاد مكسيم يتساءل:

– وما هو. هذا الشيء ؟

وردت في لهجة بائسة:

– لا أدري.

وصمتت.. واستمر الهدوء داخل العربة لحظات، لم يكن يسمع فيه إلا صوت حوافر الخيل وهي تضرب الأرض، أو صوت إحتكاك العجلات، وإستدارت رينيه ناحية النافذة وركزت نظراتها ثم قالت أخيرًا بصوت مبلل بدموع اللوعة:

– لو كنت أدري هذا الشيء لسلكت الطريق إليه دون تردد. إني أبحث عن شيء مختلف عما تعودته.. وأنى لي أن أعرفه.. ولكني أعرف قطعًا أني أصبحت ضجرة من حفلات الرقص ومن دعوات النساء.. ضجرة إلى حد المرض من كل أنواع التسلية المملة التي لا أجد فيها متعة.. حتى الرجال.. أصبحت صحبتهم لا تطاق.

وبدأ مكسيم يضحك، لقد استغرب أن يصدر عن رينيه مثل هذا القول.. ولم تعلق على ضحكه إلا بنظرة قصيرة شبه غاضبة بينما وضعت شفتها السفلى التي كانت تشبه حبة الكرز تحت أسنانها وضغطت عليها وعادت وأسندت رأسها إلى مسند المقعد وقالت دون أن تنظر إلى مكسيم:

– صدقني يا مكسيم، إن صحبة الرجال لا تطاق.. نحن بالطبع صديقان ولا أجد حرجًا من أن أصارحك بهذا.. إن أيامًا كثيرة تمر علي أكره فيها كوني إمرأة غنية، يسعى الناس إلى صحبتها ويخطبون ودها ويتلمسون رضاها.

وكف مكسيم عن ضحكه وبانت على وجهه مظاهر الجد وإلتفت إلى رينيه وقال:

- لا تظني يا رينيه أنني أضحك إستخفافًا بمشاعرك.. فأنا أحسها أحيانًا. وبالرغم من أني أصغرك بعشرة أعوام على وجه التقريب.. وبالرغم من أني لازلت في سن اللامسئولية واللهو.. إلا أني أحس أحيانًا برتابة الحياة.. أمس مثل اليوم وغدًا سيأتي مثلهما.. لقد فكرت مرة في السفر.. سفر لا نهاية له. في تجارة مثلًا، لقد مللت أنا الآخر لعبة الحب التي ألعبها وتلعبها معي الكثيرات.

وكانت الشمس في تلك اللحظة قد ألقت آخر نظرة لها على الكون، وإختفت في رحلتها اليومية المجهولة وبدأ الظلام يستعد للإنطلاق ليغلف الكون بلونه الأسود كما أصبحت العربة على مشارف باريس مودعة طريق البحيرة بمناظره الجميلة وجوه الآسر، ولم تكن لدى رينيه رغبة في مواصلة الحديث فمدت رجليها في إسترخاء وأعطت كل جزء من جسمها أقصى ما تستطيع من الإسترخاء وأعطت عينيها وأخذت تفكر في لا شيء.. صور متباينة لا رابط بينها كانت تهاجم ذاكرتها ولكنها كانت تطردها في التو مصممة على ألا تشغل ذهنها حتى بالتفكير.. ومرت العربة في شارع هورتنس حيث تقع بعض القصور المنيفة، ثم دلفت إلى شارع مونسو وتوقفت أمام قصر بوليفارد. وما إن رأى حارس البوابة الحديدية الضخمة العربة آتية حتى نهض في خفة وفتح البوابة وواصلت العربة سيرها لبضعة أمتار على مهل، مخترقة حديقة صغيرة، ثم توقفت أمام باب آخر يقود إلى داخل القصر مباشرة وما إن توقفت العربة تمامًا حتى فتح مكسيم الباب

المجاور له وهم بأن يقفز منه، غير أن رينيه إستوقفته بلمسة من يدها وقالت له:

- تذكر يا مكسيم.. العشاء في السابعة والنصف.. أمامك الآن ساعة لتغير فيها ملابسك وتعد نفسك، فلا تجعلنا ننتظر أكثر من اللازم.

وخيل إلى مكسيم أن ملاحظة زوجة أبيه قد إنتهت ولكنها واصلت قائلة:

- وتذكر أيضًا أن عائلة موريل سوف تكون ضمن المدعوين للعشاء.. ويود والدك أن تعطي كل اهتمامك للوزير.

وهز مكسيم كتفيه في ضيق وقال:

- كم يضايقني هذا الواجب الثقيل.

ثم إبتسم لرينيه وقال لها في خبث:

- هل تسدين إليَ معروفًا!! خلصينى من لويز الليلة.. إشغليها بأي شيء وإنقذيني منها.. هيه.

وضحكت رينيه، بينما قفز مكسيم، وفي لحظة كان قد اختفى داخل المنزل.. وكان السائق ومرافقه في تلك الأثناء قد نزلا من العربة، ووقفا في إحترام بجانب الباب المجاور لرينيه كي يعاوناها على النزول. وعندما غادرت العربة، صعدت بضع درجات رخامية، وما هي إلا خطوات حتى أصبحت داخل قصر من أكبر وأفخم قصور فرنسا كلها. وأثناء إختراقها الصالة الكبيرة متجهة إلى السلم المؤدي إلى الدور العلوي حيث يوجد الجناح

الخاص بها قابلت خادم زوجها وكان يحمل آنية من الفضة مملوءة بالنبيذ وكأسًا من نفس طراز الآنية وكلاهما عليه رسوم فنية بديعة، فإستوقفت الخادم قائلة:

– يا بيتست.. هل حضر سيدك من الخارج؟

ورد الخادم في لهجة مؤدبة ونظره متجه إلى أسفل ورأسه منحن:

– نعم يا سيدتي.. وهو يرتدي ملابسه الآن في جناحه..

وصعدت الدرج، وكانت الجدران مكسوة كلها بطول السلم بالمرايا التي تعكس صور الصاعدين أو الهابطين، ولذا فقد كانت رينيه تسلي نفسها طيلة صعودها الدرج بالتطلع إلى صورتها والتأمل في وجهها.. وقوامها وشعرها.. وملابسها لتطمئن –كعادتها– على جمالها وأناقتها التي كانت مضرب الأمثال بين أهل باريس كلها.

وفي الجناح الخاص بها وجدت وصيفتها الخاصة –كاتي– في إنتظارها فساعدتها على خلع ملابسها، ثم على إرتداء الملابس الخاصة بالعشاء، ثم أعادت تصفيف شعرها وإستغرقت هذه العمليه ما يقرب من الساعة وكان قد تبقى على موعد العشاء دقائق قليلة فتوجهت إلى إحدى النوافذ المطلة على الحديقة وجلست على مقعد أحضرته لها كاتي وتشاغلت بالنظر عبر النافذة.

وكانت الحديقة تبدو كبحر من الأشباح، ظلام وشجر.. وحفيف يصدر صوتًا كصفير الصغار.. ثم أضواء العربات التي كانت تخترق الممرات الرئيسية حاملة ضيوف العشاء وصهيل الخيل، وضحكات المدعوين، وكان من السهل –لو نظرت رينيه إلى أسفل الحديقة في شيء من التركيز– أن

تتبين تفصيلات المنظر ولكنها كانت تنظر إلى لا شيء.. فلقد كان تفكيرها يشد نظرها ويبعده عن المكان كله.. ويحمله إلى بعيد.. إلى طفولتها، إلى منزل أبيها في سانت لويس.. حيث قضت عشرين سنة.. ثم جرى شريط ذكرياتها من الطفولة إلى زواجها السريع المفاجيء من ذلك الرجل بعد وفاة زوجته الأولى، ذلك الرجل الذي باع نفسه ليصبح زوجًا لها.. وغير إسمه من روجون إلى ساكارد. وبعد الزواج غمسها ذلك الرجل في حياته وتطلعاته فلم تعد تدري لنفسها مخرجًا، ثم عادت بذكرياتها إلى صباها.. والألعاب التي كان تمارسها مع شقيقتها كريستين..

وإسودت الدنيا أمام عينها مرة ثانية عندما عادت بذاكراتها إلى واقعها.. وكيف أنها توشك أن تجن من هذه الحياة.. التي يدفعها إليها زوجها دفعًا.. وإستيقظت في نفسها بعض القيم القديمة.. قيم الطبقة المتوسطة التي نشأت فيها ثم إنفصلت عنها وإعتبرتها هزة وأقسمت بظلام الليل أن تبذل كل طاقتها لتتمرد على هذه الحياة وأن تبحث عن المتع البريئة.. نعم المتع البريئة التي كانت تغني بها وهي صبية في المدرسة مع زميلاتها كل صباح.. «نحن قوم شرفاء، لا نقرب الشر ولا نمارس الخطيئة»..

في تلك اللحظة دخلت كاتي وإقتربت من رنيه وهمست في صوت خافت:

– سيدتي.. إن سيدي يرجوك أن تتفضلي بالنزول الآن.. فهناك ضيوف كثيرون في غرفة الإستقبال.

وقامت رينيه من مكانها متجهة إلى أسفل وبحركة لا شعورية توقفت

أمام المرآة للتأكد من حسن منظرها، ثم غادرت جناحها وهبطت الدرج وتوجهت إلى غرفة الإستقبال، وكان معظم الضيوف قد وصلوا بالفعل، كانت هناك شقيقتها كريستين وهي فتاة نضرة في العشرين من عمرها، وكانت ترتدي ثوبًا من الموسلين الأبيض فبدت كملاك رقيق، كما كانت هناك أيضًا عمتها إليزابيث وهى أرملة في الستين من عمرها ترتدي ثوبًا من الساتان الأسود، وكانت هناك كذلك أخت زوجها مدام سيدوني ردجون.. وهي امرأة لا يستطيع المرء بسهولة أن يجد لها وصفًا أو يحدد لها عمرًا.. وكان هناك مسيو موريل وإبنته الصغيرة لويز التي وهي في نحو السابعة عشرة من عمرها نحيفة ممتقعه اللون، كمن قامت من مرض طويل هذا بالإضافة إلى جمع آخر من الرجال ذوي الأهمية الخاصة مثل كبار الموظفين أو رجال الأعمال وبعض الشبان والشابات من كبار العائلات.

ووقف ساكارد -الزوج- بباب الغرفة الكبيرة الفخمة يرحب بكل قادم جديد، وأحدث دخول رينيه موجة من الإعجاب شدت كل رقاب الموجودين ناحيتها ودخلت كالملكة.. جميلة جدًا.. وساعدها إحساسها بجمالها وشبابها على أن تبدو أكثر ترفعًا من حقيقتها وجلست على مقعد قريب وما لبث الموجودون كلهم وخاصة الرجال والشباب أن توافدوا عليها للتحية، وكانت تمد لكل منهم أطراف أناملها ليقبلها.. ولكنها أظهرت إهتمامًا خاصًا بشقيقتها كريستين فقبلتها وكذلك عمتها إليزابث، وداعبتها مدام هافز وهي تحييها وأشارت إلى القلادة التي تزين عنقها وقالت:

– أليست هذه هي القلادة التي اشتراها زوجك في مزاد لورا؟

وأومأت رينيه إيجابًا وجرت السنة السيدات بعبارات الإعجاب بالقلادة وحسن اختيار مسيو ساكارد لها حتى أن مدام أسبانت نادت عليه قائلة:

– دعني أهنئك يا مسيو ساكارد على ذوقك الجميل في إنتقاء المجوهرات.

وتظاهر ساكارد بالتواضع وإن إنتفخت أوداجه لهذا المديح ونظر بطرف عينه إلى إثنين من المقاولين كان سيعقد معهما إحدى صفقاته.

وقال:

– إن هذه القلادة لم تكلفني إلا خمسمائة ألف فرنك فقط.. وهو مبلغ قليل إذا قورنت به سعادة زوجتى بالقلادة..

وفي تلك اللحظة دخل مكسيم وتوالى دخول الضيوف إلى أن أعلن بايتسيت في صوت مرتفع أن العشاء قد أعد.

واتجه موكب الضيوف في طريقه إلى غرفة المائدة وانتقت رينيه رجلًا متقدمًا في السن هو مسيو هاميد، وكان قاضيًا ثم أحيل إلى المعاش، فتأبطت ساعده وتقدمت الضيوف بينما صاحب ساكارد المركيزة دي أسانيد.. ولم يجد مكسيم مفرًا من أن يضع ذراعه في ذراع لويز.

وكانت غرفة الطعام رائعة حقًا.. واسعة جدًا بها ثلاث موائد إضافية إلى جانب المائدة الرئيسية حتى تتسع لهذا العدد الكبير من المدعوين وكانت الجدران مزدانة بلوحات آية في روعة الفن، والثريات تتدلى من سقف الحجرة الذي لم يخل هو الآخر من النقوش البديعة بينما تناثرت

على الموائد بعض الآنية المليئة بالورود والأطباق المحملة بأصناف الفاكهة النادرة وزجاجات النبيذ المعتق وكان لكل مدعو مقعد خاص وضعت عليه بطاقة بإسمه –فتفرقوا يبحثون عن أماكنهم وعلت نداءاتهم على بعضهم البعض «هذا مكانك يا مركيز.. أو «هنا يا مدام هافز.. شد ما سيسعدني جوارك طيلة العشاء» أو «سيدي الكونت مكانك بجواري.. وسننتهز الفرصة لنتحدث في السياسة».

وبدأت طقوس العشاء.. وتوالى دخول الخدم بالأطباق المليئة وخروجهم بها خالية وقدمت المشهيات واللحوم والطيور والأسماك في أصناف وأشكال متعددة تشهد بكرم القصر وأصحابه بل وبذخهم أيضًا. ولكثرة العدد تنوعت مجالات الحديث.. إذ كان من الصعب أن يجمع الكل حديث واحد اللهم إلا إذا تحدثت رينيه أو تكلم شخص له أهميته ففي هذه الحالة كان الجميع يصيخون السمع ويتابعون ما يقال.

وسأل أحدهم ساكارد في صوت مرتفع:

– شد ما كان يسعدنا وجود صاحب السعادة أيضًا هذه الليلة.

وأجاب ساكارد في زهو:

– إن شقيقي للأسف مشغول الليلة، وقد أرسل سكرتيره الخاص ليبلغني إعتذاره.

وقال مسيو سافري:

– سكرتير صاحب السعادة الوزير شقيق ساكارد.

– نعم. فقد دعى مجلس الوزراء إلى إجتماع طارئ في منزل حامل أختام الإمبراطور.. ولذا فلن يتمكن صاحب السعادة من الحضور.

ومع استمرار تناول الطعام إستمرت الأحاديث متباينة بين المدعوين، كل جماعة متقاربة إنشغلت في حديث مشترك، وكان أكثر الأصوات إرتفاعًا هو صوت مسمير توتين لاروش عضو المجلس البلدي فقد كان يتكلم وهو يمضغ الطعام كما لو كان يلقي بيانًا أمام المجلس، وقال موجهًا الكلام لمن حوله من رجال السياسة والأعمال:

– إن القرض الوطني الذي أصدرته البلدية سيذكر على مر السنين على أنه أحد الأعمال الإقتصادية الهامة في تاريخ باريس آه يا سادة.. إن هذا القرض..

ولكن صوته في تلك اللحظة ضاع وسط ضحكة صاخبة إنطلقت من الركن الذي جلس فيه مكسيم وبعض أصحابه من الشباب وتلت تلك الضحكة ضحكات أخرى وضح فيها صوت مكسيم وهو يقول لمن حوله:

– لقد سمعت من مصدر عليم أنها أحضرت له مدرسًا يعلمه فن الإتيكيت حتى يصبح كفؤًا لأن يتزوجها.. بعد أن يطلقها زوجها وهي تقول أنه سيكون الرجل الثاني الذي سيسعده الحظ ليرى الشامة الموجودة فوق ركبتها بقليل!

وتلا ذلك الحديث ضحكات أخرى، هدأت قليلًا وإنتهز ساكارد الفرصة ليعيد إلى الحديث توتين لاروس مجال السيطرة فقال كأنه يذكره.

– حقًا مسيو توتين.. إن ذلك القرض الوطني..

وإلتقط منه توتين خيط الحديث وأكمل قائلًا:

– إن أمس ليعد يومًا مجيدًا بالنسبة لنا يا سادة.. فطالما هاجمنا البعض وإتهمنا بأننا ندفع المدينة إلى الخراب.. وها أنتم قد رأيتم بأنفسكم أننا لم نكد نصدر سندات القرض حتى تهافت الناس على شرائها.. وكان أولهم هم من هاجمونا من قبل.

وعقب ساكارد قائلًا:

– إنكم تقومون بالمعجزات يا توتين.. ولقد أصبحت باريس بفضل نشاط المجلس عاصمة –ليس للإمبراطورية وحدها وإنما للعالم أجمع.

ورد مدعو آخر يدعى مسيو هوبل قائلًا:

– حقًا ما قلت يا سكارد.. هل تتصورون أني –وأنا إبن باريس– لم أعد أعرف كل معالمها لكثرة التجديدات والإنشاءات التي تمت فيها.. لقد ضللت طريقى أمس وأنا متجه من منزلي إلى فندق لوكسمبرج.

وإبتسم ساكارد. وداخله إحساس بالسرور عندما رأى معظم الحاضرين وقد استرعى إنتباههم حديث توتين، لما كان لهذا الحديث من أهمية خاصة مرتبطة بمصالحه المالية التي لم يكن يهمه في الدنيا شيء مثلها، وإلتفت إلى إثنين من المقاولين اللذين كانا يقومان ببعض أعماله ونظر إليهما نظرة خاصة كأنه يود أن يجذب إنتباههما إلى أهمية الحديث وقال:

– في الواقع يا سادة لم يكن المجلس البلدي ليستطيع أن ينجز أي شيء مما قام به لولا تعاون الشركات الغنية معه، بفضلها، أنجزت الأعمال بسرعة غير متوقعة.

ومع توالي تقديم أصناف الطعام توالت الأحاديث المختلفة، الشباب في أحاديثهم المرحة التي لا تخرج عن دائرة المغامرات والحسناوات وآخر أنباء الحب في مجتمع باريس الراقي، والكبار في إهتماماتهم الإقتصادية والسياسية، فقد إنتقل حديثهم بعد إزجاء المديح إلى المشروعات العمرانية الضخمة التي أقيمت وتقام في باريس والتي ربح من ورائها كثير من الحاضرين –وهذا هو السبب في تحمسهم لذلك الجانب من الحديث وأكالتهم المديح للمسئولين عن المجلس البلدي– إنتقل الحديث إلى السياسة.

ووجه ساكارد سؤاله إلى مسيو هوبل المعروف بصلاته القوية بالإمبراطورية قائلًا:

– ما هي أخبار الإنتخابات القادمة يا مسيو هوبل..

وإنتفخت أوداج الأخير وهو يجيب قائلًا:

– خيرًا.. ولو أني لست في حل من ذكر أسماء بعض المرشحين الذين إختارهم فعلًا صاحب الجلالة الإمبراطور.

ثم إلتفت إلى مسيو شادو الذي كان يجاوره على المائدة وإبتسم وقال:

– لقد سمعت عنك كثيرًا يا سيدي أثناء زيارتي الأخيرة للريف، فأملاكك الواسعة هناك أكسبت إسمك صيتًا ما بعده صيت.. وإخلاصك للإمبراطور معروف.. ولسوف يسرني أن أرشحك لدى جلالته ليضمك إلى قائمة مرشحيه في الإنتخابات.

وتضرج وجه مسيو شادو خجلًا عندما سمع ذلك الإطراء موجهًا إليه والذي كانت نتيجته أن تحولت الأنظار إليه وخصوصًا أنظار ساكارد، وقال:

– إن الإخلاص للإمبراطور واجب مقدس.. وفي الحق يجب على كل الأغنياء وأصحاب الأراضي أن يلتفوا حول الإمبراطور، فهو درعهم وهم درعه والمصالح مشتركة بيننا..

وأمن مسيو توتين على هذا الكلام قائلًا:

– نعم. يجب أن تلتف الثروات الكبيرة حول العرش لتدعم سلطانه في كل أنحاء الإمبراطورية؟!

وهم ساكارد أن يفتح فمه ليدلي بدلوه في هذا المجال غير أن زوجته رينيه سبقته إلى الحديث قائلة وعلى شفتيها إبتسامة لم تستطع أن تخفي خلفها إحساسها بالضيق:

– رفقًا بنا يا سادة.. فحديث السياسة لا يهمنا نحن السيدات..

ولأن الملاحظة صدرت عن رينيه الجميلة الفاتنة، ربة المنزل.. وجميلة الجميلات في تلك الليلة، فقد تلقى رجال المال والسياسة ملاحظتها بصدور رحيبة وبإبتسامة على الشفاه وبغمغمات تحمل بعضها ما معناه «فعلًا» أو «الحق معها»..

وإنتقل الحديث بسرعة إلى ناحية مختلفة حيث قص مسيو هوبل آخر أخبار إحدى الفضائح التي حدثت في منزل أحد كبار رجال البلاط،

وتعمد ذكر بعض التفصيلات التي يمكن وصفها بأنها غير مهذبة وبالرغم من ذلك فقد حظي الحديث بإهتمام الجميع، حتى الخدم الذين يقومون على خدمة المدعوين كانوا يتلكأون في مغادرة غرفة المائدة لكي يسمعوا أكبر قدر من تلك القصة الشيقة.

وعندما إنتهى مسيو هوبل، إنتقل مسيو شادو بالحديث، حيث عقد مقارنة بين السيدات وبين أنواع الزهور المختلفة ثم تحدثت مدام أسبانت عن خطوط الأزياء في الموسم القادم وتشعب الحديث وتنوع حتى تعب المدعوون من الأكل ومن الكلام على حد سواء.

وتوقف الجميع بلا إستثناء عن تناول الطعام، بعد أن قذفوا في أمعائهم كميات أكثر مما تحتمل.

وظهرت على وجوههم جميعًا دلائل تعب شديد كالخارجين من معركة، إنتصروا فيها بعد جهد، وجلسوا يلتقطون أنفاسهم بجوار أشلاء أعدائهم بينما بدت المائدة كميدان قتال مهجور بعد معركة مريرة.. ولم يكلف أحدهم نفسه حتى مشقة النهوض أو الكلام بل جلسوا صامتين وقد تتشاغل أصابع بعضهم في تحريك ملعقة أو لمس أطراف غطاء المائدة الحريري إنتظارًا لما قد يكون..

ومدت رينيه يدها الرقيقة وتناولت كأسها ورشفت آخر قطرات من النبيذ بقيت فيه وفي نظرة واحدة مسحت كل وجوه الحاضرين وعندما إلتقت نظرتها بمسيو موسى، حاول الأخير أن يجذب إنتباها، ولكن نظراتها الجامدة إضطرته إلى أن يكف عن محاولته.. وبالطبع كانت أفكارها

الملائكية التي إنتابتها وهي جالسة بجوار نافذة حجرتها قد غرقت في ضحكات الموجودين وضجيجهم وكست فخامة الحياة إحساسها السابق بجدار من الصدأ، ولكنها بالرغم من ذلك ظلت أكثر الوقت صامتة تسمع ولا تتكلم تفكر ولا تعبر عما يجول في خاطرها.

وأخيرًا نهضت من مقعدها، وكان نهوضها هو إشارة البدء للجميع فقاموا كما لو كانوا في فصل دراسي أو طابور جند، وإتجهت إلى قاعة الإستقبال حيث كان من المقرر أن يتناولوا القهوة هناك.

وبعد القهوة، إنتقل الرجال إلى غرفة أخرى ليدخنوا فيها بعيدًا عن السيدات، وهناك إرتفعت الضحكات العالية وتبودلت النكات وإنزاحت عن الوجوه أقنعة التظاهر وأعاد مسيو هوبل رواية أخبار الفضيحة التي رواها على مائدة الطعام ولكن بتفصيلات أكثر وسمعت تعليقات هنا وهناك وكان يعقب كل تعليق ضحكة صاخبة تدل على وقاحة التعليق، وجلس مكسيم على أحد المقاعد، وأشعل سيجارًا كبيرًا لا يتناسب مع سنه ولكنه كان يجاري عادة الشباب في ذلك الحين ورغبتهم في تقليد الكبار حتى يعطوا لأنفسهم إحساسًا بالأهمية.

ولمحه موسى فجلس بجواره وكانت تربطهما معرفة قديمة من أيام المدرسة وإن كان موسى يكبره بسبعة أعوام وسأله قائلًا:

– قل لي يا مكسيم، ما بال رينيه يبدو عليها إحساس بالكآبة غير طبيعي؟

فرد عليه مكسيم ضاحكًا:

– إن أعصابها ليست على ما يرام هذه الأيام.

وعاد موسى يقول:

– عندما لمحتها في العربة عصر اليوم، ألقيت إليها بالتحية ولكنها لم ترد، والليلة ونحن على مائدة الطعام لاحظت أنها تتعمد تجاهلي تمامًا.

فأجاب مكسيم:

– لا عليك يا موسى، لقد قلت لك إن أعصابها متعبة بعض الشيء.

وقطع دخول سكارد حديث الشابين فصمتا وراح كل منهما يدخن سيجارته بهدوء..

وأخيرًا قام مكسيم وإتجه إلى غرفة الإستقبال حيث كانت توجد السيدات وبعض الشبان الذين فضلوا صحبة السيدات والفتيات على التدخين وإتجه إلى رينيه التي كانت جالسة تتحدث مع مدام هافز ومدام أسبيناد وهما صديقتاها المقربتان، وما إن رأته حتى ضحكت وقالت:

– ها أنت لم تطق صحبة الرجال وعدت إلى حظيرة النساء يا مكسيم..

ورد مكسيم ضاحكًا:

– ومن يستغني عنهن؟!

ولاحظت أن عينيه تبحثان عن شيء فغمزت بطرف عينها وقالت مبتسمة:

– سبحان مغير الأحوال. كنت ترجوني منذ قليل أن أخلصك منها وها أنت ذا تبحث عنها.

وتظاهر بالغباء وهو يسأل:

– عمن تتحدثين.

فأجابت:

– عن لويز.. لقد لاحظت أنكما كنتما في منتهى السعادة أثناء تناول الطعام.. كانت ضحكاتكما هي المنافس الوحيد لحديث مسيو توتين.

وضحك وهو يقول:

– إنك تلاحظين كل شيء يا زوجة أبي العزيزة. حسنًا.. إني أروض نفسي على صحبتها ما دام أبي قد رسم خطته اقترانى بها.

ثم صمت قليلًا وعاد يقول:

– أتدرين لم ضحكت تلك الضحكة المرتفعة أثناء تناول الطعام؟

وردت رينيه قائلة:

– لعلك حكيت لها نادرة من نوادرك.

ولكن مكسيم أجاب ضاحكًا:

– أبدًا.. لقد مددت يدي من تحت المائدة وقرصتها في ركبتها.

وبانت على وجه رينيه الدهشة، بينما إستمر مكسيم يقول:

– ألم أقل لك أني أروض نفسي على صحبتها كزوجة المستقبل!!

وأرشدته رينيه إلى مكان لويز في الشرفة المطلة على الحديقة فأسرع إليها وكانت جالسة على أحد المقاعد، وما إن رأته حتى سألته:

– أين والدي يا مكسيم؟

وأجاب:

– في غرفة التدخين.

وردت قائلة:

– أخشى أن يكون قد نام. فموعد نومه قد حل!! وهو لا يفرق كثيرًا بين غرفة التدخين وغرفة النوم.

وندت عنهما ضحكة عالية مرحة وجلس بجوارها، وإمتدت يده تداعب خصلات شعرها، ثم ما لبث أن فاجأها بقبلة تقاومها.

ومضت ساعات من الليل إنصرف في أثنائها معظم المدعوين وقامت رينيه من مكانها وكان من تبقى من المدعوين قد تفرقوا في قاعة الإستقبال أو غرفة التدخين، بعضهم يتحدث وبعضهم يلعب الورق، وشعرت رينيه ببعض الضيق فخرجت إلى الحديقة تتنسم فيها بعض الهواء، وكان الجو مظلمًا إلا من أشعة الضوء المنبعثة من داخل القصر والهدوء مخيمًا إلا من صوت ضحكات مكسيم ولويز المنبعث من الشرفة، وآثرت رينيه أن تتوغل داخل الحديقة قليلًا حتى تغرق نفسها في هدوء وظلام تامين.. ثم إستندت إلى جذع شجرة ووقفت حيث ظنت أنها بعيدة عن مجال الرؤية والسمع من كل الموجودين.

ولكنها لم تلبث أن سمعت صوت زوجها آتيًا من مكان قريب وهو يقول:

- إنها قطعة أرض ممتازة..

ورد عليه محدثه الذي تبينت فيه رينيه أحد المقاولين اللذين يشاركان زوجها في بعض الأعمال.

- إننا لا نستطيع يا مسيو ساكارد أن ندفع في المتر أكثر من مائتي فرنك.

ورد ساكارد قائلًا:

- وأنا لن أبيع بأقل من مائتين وخمسين.

وحسم الرجل الموقف قائلًا:

- حسنًا.. فليكن مائتين وخمسًا وعشرين.. هذا هو آخر ما نستطيع دفعه. وتمت الصفقة.. إحدى صفقات ساكارد الشهيرة.

وشعرت رينيه بمرارة.. إن المال هو كل شيء في حياة زوجها.. لكن أين تقف هي منه.. وما هو مبلغ إهتمامه بها؟

وإزدادت درجة الحرارة التي أحست بها.

الفصل الثاني

عودة إلى تاريخ قديم..

في صباح اليوم الثاني من ديسمبر سنة ١٨٥٢ نزح أرستيد روجون الذي غير إسمه إلى ساكارد فيما بعد لسبب سيتضح بعد قليل، مهاجرًا من الريف ميممًا وجهه شطر بارس كالذئب الذى يشم رائحة الدم فيتجه إليه مدفوعًا بحاسته وشهوته وشراسته. وكان موطنه إقليمًا ريفيًا إسمه

بلاسانز، حيث كان يعيش مع والده الذي يعمل في وظيفة صغيرة كمحصل ضرائب، وكان ساكارد وهو في بداية شبابه غير راض عن سكنى الريف ولا عن الحياة المتواضعة التي تهيئها له موارد والده المحدودة ، ولذا فإنه وفد على باريس وفي نفسه نقمة على الماضي، وتصميم غاضب عنيف على أن يشق لنفسه مستقبلًا بين صخور تلك المدينة الكبيرة وأقسم بينه وبين نفسه على ألا يترك فرصة تسنح أمامه ليثرى وليكون في عداد الناس البارزين في باريس، وكان هذا الإحساس يترجم في صورة نظرة ثاقبة وعضة على الشفة السفلى وضغط على النواجذ إمعانًا في التصميم.

وعندما وصل إلى باريس لم يكن وحيدًا بل كان معه في رحلة الأمل هذه، زوجة وطفلة في نحو الرابعة من عمرها.

أما الزوجة وإسمها أنجيل فكانت رقيقة صغيرة الجسم نحيفة القد، معتلة

الصحة دائمًا وقد صممت على أن تصطحب معها طفلتها غير ملقية بالًا إلى رغبة زوجها ساكارد في أن يتركها في رعاية أسرته وإن كانت قد رضيت أن تترك إبنها الآخر مكسيم وكان عندئذ في نحو العاشرة من عمره في المدرسة الداخلية التي ألحق بها على أمل أن ترعاه والدة ساكارد.

وكان ساكارد يود لو يتخفف من عبء الطفلة الأخرى وإن كان في باطنه يود أيضًا لو أنه إستطاع أن يأتي إلى باريس بمفرده فزوجه وطفلته، سيشكلان بالنسبة له وهو النازح طمعًا في بناء مستقبل أفضل في مدينة غريبة عنه، عبئًا ليس في مقدوره وحده أن يتحمله.

وقادهما الحوذي الذي حملهما مع طفلتهما والحقائب التي ضمت كل ملابسهم وكل ما تخيلوا أنه سينفعهم في حياتهم الجديدة إلى فندق رخيص قذر، حيث إستأجروا إحدى غرفه كمقر مؤقت إلى أن يتعرفوا على الأرض التي سيقفون عليها.

وفي أول لياليهم في باريس وبينما كانت أنجيل الزوجة مشغولة بتفريغ الحقائب وترتيب الملابس داخلت ساكارد رغبة في أن يقوم بجولة في باريس يستكشف فيها المدينة التي إختارها لمصيره هو وعائلته الصغيرة، وأن يطأ بنعله المتهرئ الأحجار التي رصفت بها الشوارع والتي كان يأمل ويتمنى أن يستخرج من تحتها التبر.

وخلال أربع ساعات كان قد وطئ قدمه كل شارع في باريس وكل حارة فيها وكل شبر في أرضها.. كقائد الجيش الذي يود أن يتعرف على أرض المعركة التي سيخوضها.. نعم.. لقد كانت معركة.. خاضها ضد ماضيه،

متسلحًا بأمانيه ورغبته في أن يكون شيئًا ما.. ولطالما نصحه والده عندما كان يستمع منه إلى رغباته المدمرة وضجره من حياة الريف إلى أن يكبح جماح نفسه وإلا دمرها.. ولكنه كان يحلق بأحلامه فوق باريس، تلك المدينة الكبيرة التي سحرته وإستولت على لبه عندما قضى بها عامًا كاملًا في صباه طلبًا للعلم، والتي تركها مجبرًا عندما ضاقت موارد والده بنفقات تعليمه فإستدعاه ليقيم معه في الريف.

ومنذ ذلك اليوم وهو يحلم بباريس وبحياة باريس وبالثروة التي يمكنه أن يكونها لو عاش في باريس.. إلى أن عقد العزم على تحقيق الحلم.. وها هو ذا أخيرًا على أبواب حياته الجديدة.

وكان وهو يطوف بالشوارع بداخله إحساس كصاحب الإقطاعية الذي يتمشى بين ملاكه الخاصة.. نعم أملاكه الخاصة.. ليجعلها في القريب جزءًا من أملاكه.. أو ليقتطع منها جزءًا ليكون ملكًا خالصًا صافيًا له.. كيف؟. هذا ما سيفكر فيه بعد ذلك.. المهم الغاية.. والوسيلة ستبررها مهما كانت ومهما شقت بل ومهما شذت عن قيود المجتمع وتقاليده..

المجتمع!! تبًا لهذا المجتمع.. لو أنه ألقي إليه بأمور مستقبله في إستسلام، لكان أقصى ما سيصل إليه وظيفة صغيرة حقيرة التي يشغلها والده.. ولكن هل هذا هو ما يتمناه لنفسه!.. كلا.. وألف كلا.

إنه في جولته هذه قد أتم إستكشاف كل باريس.. وها هو ذا يصيح لنفسه صيحة مكبث المشهورة: «لتكن غنيًا».. وشعر بسعادة غامرة ترطب كيانه كنسمة عليلة تهب على مسافر في يوم قائظ.

وقادته قدماه إلى شارع سانت أونوريه حيث يسكن بوجين روجون. شقيقه الأكبر، وكان ساكارد يعتمد على المساعدة التي سيسديها إليه شقيقه هذا، ولذا فقد أرسل إليه خطابًا يخطره فيه بقدومه إلى باريس.. وكان بوجين شابًا ثائرًا.. إشترك مع مجموعة من الشباب في الإنقلاب الفاشل الذي دبر ضد الإمبراطور في أوائل حكمه وعفى عنه بعد أن تغيرت نزعته السياسية واشتغل محاميًا إلى جانب إشتغاله بالسياسة التي برز في سمائها وصار يتطلع إلى آفاق نجاح سياسي كبير.

وتوقف ساكارد أمام منزل شقيقه وكان الباب مغلقًا، ولكنه استجاب لدفعة يده، ودخل، ثم تحسس طريقه إلى السلم وسط الظلام المطبق وصعد الدرج في هدوء وسكون يتناسب مع الهدوء الشامل الذي كان يسود المنزل، وأخيرًا توقف أمام شقة بوجين وهم بأن يطرق الباب.. ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة مفضلًا وقتًا أحسن ليرى فيه أخاه حتى يضمن نتيجة اللقاء، وفي دقيقة

كان قد هبط السلم مرة ثانية وخرج من باب المنزل، وإنطلق وسط الظلام ميممًا وجهه شطر الفندق.

ولم يكد يبزغ ضوء النهار حتى كان في شقة أخيه مرة ثانية وصدمه منظرها، إذ أنها كانت عادية تتكون من حجرتين أثاثها عادي أو أقل من العادي.. على عكس ما كان يظنه ساكارد من أن بوجين يعيش في ترف وسعة.

وكان بوجين جالسًا على أحد المقاعد بجوار منضدة صغيرة وأمامه بعض الأوراق وقد استقبل أخاه بفتور، وقال وعلى وجهه إبتسامة ليس لها أي معنى:

– ها أنت قد جئت إلى باريس.. لقد كنت أتوقع وصولك بين يوم وآخر.

وأحس ساكارد بمرارة وسخط على أخيه.. واتهمه بينه وبين نفسه بأنه قنع بالحياة في باريس، وتركه يجتر شظف العيش في الريف، دون أن يفكر في أن يمد له يد المساعدة، ولو بالنصيحة التي لم تكن لتكلفه شيئًا.

وأمسك بوجين بالقلم وتشاغل بالكتابة وقال لأخيه:

– لقد أرسلت تطلب إليَ أن أساعدك في إيجاد وظيفة مناسبة.

وقال ساكارد في صوت حرص على أن تحمل نبراته إحساسًا بالإحترام:

– نعم.

وإستطرد بوجين يقول:

– لقد فكرت في الموضوع مليًا.. وإن كنت لم أعثر على بغيتك.

ولما لاحظ تعبير خيبة الأمل التي ارتسمت على وجه ساكارد واصل حديثه قائلًا:

– يجب أن أكون حريصًا حيث أزكيك.. إن ما ترغبه هو مكان تستطيع أن تبني فيه عشك في أمان.. دون أن تكون مصدر خطر لي أو لك.. وعندما تسنح أمامي فرصة أجدها مناسبة لك فلن أتوانى عن إقتناصها.. وحتى تسنح هذه الفرصة.. فإني أستطيع أن أمدك ببعض المعونات الصغيرة من حين إلى آخر.. عشرون أو ثلاثون فرنكًا..

وتطرق الحديث بين الشقيقين إلى أحوال العائلة وقام بوجين من مكانه وأخذ يرتدي ملابسه ليلحق بموعد هام وقبل أن يستأذن ساكارد وينصرف

قال له بوجين محذرًا:

– لا تقلق يا ساكارد.. إنتظر في فندقك حتى أجد لك الوظيفة المناسبة، فأنا لا أود أن أراك تتردد على الناس هنا طالبًا منهم عملًا. إن هذا يضعف مركزي.

وإنصرف ساكارد وتوجه إلى الفندق مباشرة، حيث كانت أنجيل في انتظاره فأنهى إليها بنتيجة هذا اللقاء.

وطال إنتظار ساكارد حتى بلغ شهرًا.. أنفق فيه كل ما كان معه من مال إذ كان قد إقترض خمسمائة فرنك من والد أنجيل عند رحيله ، أنفق منها مائتين في الرحلة.. وأنفق الثلاثمائة المتبقية على مدار الشهر..

مرت الأيام تقيلة بطيئة على ساكارد الذي كاد صبره أن ينفد، وكان يجلس كل صباح أمام نافذة الفندق يطل منها على حركة المدينة التي لم تكن تهدأ في أي ساعة من ساعات النهار، يرى الناس ذاهبين وقافلين من أعمالهم، ويكاد الضجر والضيق يعصفان به.. وتردد على أخيه مرتين ليستحثه على سرعة البحث عن عمل له ولكن بوجين في المرتين كان يؤكد له أنه لم ينسه وإن كل ما عليه هو أن يتذرع بالصبر.

وأخيرًا وفي صبيحة أحد الأيام تسلم خطابًا فضه فوجده دعوة من أخيه يطلب منه أن يوافيه في مسكنه في أقرب وقت مستطاع. وبسرعة، إرتدي ملابسه وتوجه إلى شقيقه الذي كان

جالسًا كعادته أمام منضدته وفي يده القلم وأمامه الأوراق، وما إن رآه حتى قال له:

– لقد تمكنت من أن أحل مشكلتك بالأمس فقط.

ثم ناوله ورقة مكتوبة وملفوفة بعناية وقال له:

– ها هو ذا أمر تعيينك كمساعد كاتب في «البلدية» وسيكون مرتبك ألفين وأربعمائة فرنك سنويًا.

وإمتقع وجه ساكارد لدى سماعه ذلك الرقم ووضع الورقة على المنضدة أمام بوجين وخطر له أنه ربما كان يمزح، لأنه كان يأمل أن يكون مرتب الوظيفة ستة آلاف فرنك على الأقل وهو المبلغ الذي يستطيع أن يعيش به عيشة خالية حتى من البذخ أو الإسراف.

وعندما لحظ بوجين خيبة أمل أخيه إعتراه إحساس بالغضب وقال له:

– يالك من غبي، تغرق في الأحلام مثلما تفعل البنات. إنك تود أن تسكن في شقة أنيقة بها خدم وحشم وتود أن تأكل أشهى الطعام وتلبس أحسن الملابس وتنام على فراش من حرير وتنعم بأي عدد تشاء من العشيقات.. إنك أنت وأمثالك تودون أن تصعدوا سلم الحياة قفزًا.. لكن.. يا إلهي!! لم لا يكون عندك شيء من الصبر!

أنظر كيف أعيش أنا في هذه الشقة الصغيرة.. وخلفي كل هذه السنوات من الكفاح!

وكان بوجين يتحدث بلهجة فيها مزيج من الغضب والتعالي والإحتقار.. وكان من السهل أن يحس سامعه أن ذلك النوع من الرجال ،أشباه ساكارد ليسوا غرباء عنه بل أنه يعرفهم ويعرف مطامعهم، وإنه

متعود على تسرعهم للوصول إلى سلم الثروة.. وهدأت حدة غضبه وإبتسم وواصل حديثه قائلًا:

– إني لا أشك في ذكائك وفي قدرتك على الوصول إلى أغراضك بسهولة.لكن نصيحتي إليك هي ألا تتعجل.. إنك شبيهي يا ساكارد وإن إختلفت مطامع كل منا.. أنا أسعى إلى أن أصبح من زمرة الحاكمين وأنت تسعى لتكون من زمرة أهل المال. ولكن ننتظر حتى تسنح الفرصة.. إنك وأمثالك تكونون أعمدة الحكم الذي نسعى إليه.. لأنكم ستستفيدون منه.. ستكون المائدة مكتظة ليعب منها كل ذي موهبة حتى يتخمه الطعام..

وكأنما أراح هذا التشبيه المليء بالأمل نفس ساكارد، فزال عن وجهه بعض شحوبه بينما إستمر بوجين يقول:

– قل لي يا ساكارد.. ماذا كنت تتوقع مني أن أفعل لك أكثر من ذلك؟. إنك لم تكمل دراستك للقانون بل قطعتها بعد سنة واحدة ثم آثرت أن تهرع إلى الريف لتقيم مع والدك تساعده في مهنته البسيطة.. لقد كنت تتخيل أنه بإستطاعتك أن تقتني ثروة في الريف ولكن خاب ظنك ولذا فقد عدت إلى المدينة والطموح يموج في كيانك كالجواد الذي تلهب ظهره السياط.. هل تظن أني مستطيع أن أجد لك وظيفة وزير مثلًا؟!

وهدأ صوته وأحس أن عليه أن يطيب خاطر ساكارد فقال في لهجة أكثر ودًا:

– أنا أعلم أن عندك موهبة النجاح بأي وسيلة وأعتقد –بل وأؤمن– أن

وظيفة الفندق هذه.. هي مفتاح الوصول بالنسبة إليك.

ونهض من مكانه وناول ساكارد خطاب التعيين مرة ثانية وهو يقول:

– أقبل هذه الوظيفة دون تردد.. ولسوف تشكرني في يوم من الأيام. لقد إخترت لك هذه الوظيفة بنفسي وأنا مدرك ما سوف تحققه فيها من ربح، وكل ما هو مطلوب منك هو أن تفتح عينيك وأذنيك جيدًا.. وتذكر جيدًا يا ساكارد أننا مقبلون على فترة في تاريخ باريس وتاريخ فرنسا كلها، ستكون الثروة فيها في متناول كل ذكي فطن. إكسب ما تشاء.. كون أي قدر من الثروة.. لكن.. دون فضائح.. أو طرق غير مشروعة.. وإلا.

وإهتزت نفس ساكارد لدى سماعه هذا التهديد وإن كان أثره قد زال بسرعة وأحس وقد قرر أن يقبل الوظيفة مقتنعًا بما قاله بوجين أنه قد إستلم الترخيص بأن ينطلق في طريقه مخولًا بأن يحز الرقاب.. طالما إكتست أفعاله برداء الشرعية وأنه وهو في تلك الوظيفة لابد وأن يستغلها أيما إستغلال.

وأعطاه بوجين مائتي فرنك ليعيش بها حتى نهاية الشهر وقبل أن يتهيأ ساكارد للإنصراف إلتفت إليه بوجين وقال له:

– أظن من الأنسب أن تغير إسمك..

وكانت الملاحظة مفاجئة لساكارد وأحس أن أخاه يود أن يظل بعيدًا عن نشاطه حتى لا يضار به مستقبله السياسي، ولم يغضب فما أسهل عليه أن يغير إسمه طالما أن ذلك لن يضيره، ورد قائلًا في هدوء:

– كما تريد.

وقال بوجين:

– لا تتعب نفسك، فسأقوم أنا بكل الإجراءات الرسمية. إن إسمك هو روجون.. أرستيد روجون.. فأي إسم آخر تختار..

ورد ساكارد على الفور:

– سأسمي نفسي ساكارد وهو إسم التدليل الذي إشتهر به سيكون إسمي الرسمى أرستيد ساكارد وبهذا لن يوجد أي تشابه بين إسمينا.. أنت إسمك بوجين روجون وأنا إسمي من الآن أرستيد ساكارد..

وإنصرف ساكارد وما هي إلا بضعة أيام حتى كان قد تسلم عمله الجديد في (البلدية) وأحس من الوهلة الأولى أنه لابد أن يكون لشقيقه نفوذ كبير حتى يلحقه بهذه الوظيفة دون أن يمر بالإجراءات والإختبارات المعتادة.

ولكن آمال ساكارد في الوظيفة لم تلبث أن تحطمت تمامًا. فشظف العيش لم يفارقه وحالته لم تتغير وظل يعيش في ضيق وضنك، يلعن الزمن ويلعن الناس ويلعن الفقر.. وإن ظلت لعناته

حبيسة نفسه لا يستطيع أن يبوح بها لأحد إلا لزوجته أنجيل المسكينة التي كانت تقاسمه تلك الحياة الشاقة في صمت، وظل هكذا كالأسد الحبيس الذي لا يستطيع أن يتحرك في القفص.

ولم يكن مرتبه يكفيه وإضطر أكثر من مرة إلى أن يذهب إلى بوجين

ليقترض منه بعض المال وكان الأخير يعطيه دون تمنع وإن كان يعقب على تذمر ساكارد بقوله:

– قلت لك أصبر.. وسوف تفتح لك قريبًا الأبواب.

وكان بوجين قد نجح في الإنتخابات التشريعية وإزدادت أهميته السياسية ولم يحقد عليه ساكارد وإن كان يحس في قرارة نفسه أن بإمكان أخيه أن يساعده أكثر لو أراد.

وثار ساكارد على نفسه ذات مرة، وقرر ألا يستدين من كائن من كان وخاصة بوجين.. وفي سبيل أن يحافظ على هذا القرار، ذاق العذاب الكثير.. وفي الأسبوع الأخير من كل شهر، لم يكن يأكل هو وأنجيل إلا الخبز الجاف، مغموسًا بأنات الحاجة والحرمان.

ومضى عليه عام وهو في تلك الوظيفة، ثم سنحت لبوجين الفرصة بأن يزكيه للترقية فأصبح كاتبًا بدلًا من مساعد كاتب، وإرتفع مرتبه إلى أربعة آلاف فرنك ولم يفرح كثيرًا لهذه الزيادة في المرتب لأنها كانت دون آماله وأقل بكثير جدًا مما يطمع فيه.. وإنعكست هذه الزيادة على أنجيل أكثر فصارت تطهو اللحم مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع وأصبح في وسعها أن تشتري رداء جديدًا بدلًا من تلك الأردية القديمة. التي بذلت جهدًا ومهارة كبيرين في رقعها أو إعادة تشكيلها.

وكان ساكارد يبذل كل ما يستطيع من جهد في عمله لا يستقر على مكتبه إلا لدقائق ثم يقوم كالنحلة، هنا وهناك، وأذناه كقرني الإستشعار تتوجهان ناحية الكلام الهامس أو المشاورات أو الإجتماعات التي كان

يعقدها عليه القوم في أروقة قصر البلدية الذي كان يلتقي فيه أهم رجال المدينة، وكم عقدت في صالاته صفقات وتمت إتصالات ودبرت مؤامرات وتنوقلت أخبار فضائح كان من الواجب ألا تتعدى أبواب حجرات النوم في القصور العالية.

وكان ساكارد حريصًا غاية الحرص على ألا يبدو عليه أنه مهتم بأي شيء، حتى لا يؤخذ منه الحرص، وعمل على توطيد صلاته بزملائه بل إنه كان أحيانًا يتطوع لمساعدتهم في أعمالهم.. فتسنح له فرصة الإطلاع على أوراقهم.. حتى الخدم، تظاهر معهم بالديمقراطية ولم يكن يتورع عن مصافحتهم بيده، سائلًا عن الحال والأولاد.. وكان الخدم ممن إعتادوا تعالي الموظفين وبهرهم هذا التواضع، يبوحون له بأسرارهم الشخصية، ثم يستدرجهم في ذكاء ويستنزف منهم كل ما لديهم من أخبار.

ولم يكن قد مضى عليه عامان، حتى كان قد عرف المشروعات الجديدة التي كانت تخطط لباريس الجديدة وعرف النيات التي كانت معقودة لإضافة أحياء جديدة في المدينة وشق شوارع رئيسية وتغير معالم الأحياء القديمة، وكان ساكارد قد ركز إهتمامه على هده النواحي العمرانية لإدراكه بحماسته الإقتصادية أن المقاولات والهدم والبناء هو أقصر طريق للإثراء.

وفي بداية عام ١٨٥٤، وخلال إحدى الزيارات القليلة التي كان يقوم بها لشقيقه بوجين، قال له ردًا على سؤال عن أحواله:

– لقد لاحت أمامي بعض الفرص.

وبسرعة رد عليه بوجين حتى دون أن ينظر إليه:

– إنتهزها.

وإبتسم ساكارد.. وقال لنفسه أنه ليس في حاجة إلى تلك النصيحة البديهية وقال بصوت مسموع:

– نعم.. سوف أنتهزها.. عندما يحين الوقت المناسب لها.

كانت المشكلة التي تواجه ساكارد الآن هي كيفية الحصول على رأسمال متواضع، يبدأ به حظه في عالم المال.. وهذه المشكلة لم تكن بسيطة، ولطالما أقلقته، خاصة وأنه فقير وزوجته فقيرة.. وشقيقه يتغابى عن حقيقة إحتياجه للمال ويكتفي بمجرد النصح الشفهي.

وعندما عاد إلى المنزل وجد زوجته جالسة تلاعب طفلتها الصغيرة في هدوء، وكانت بطبيعتها بعيدة عن مجال تفكير.

ولم يكن مرتبه يكفيه وإضطر أكثر من مرة إلى أن يذهب إلى بوجين ليقترض منه بعض المال وكان الأخير يعطيه دون تمنع وإن كان يعقب على تذمر ساكارد بقوله:

– قلت لك أصبر.. وسوف تفتح لك قريبًا الأبواب.

وكان بوجين قد نجح في الإنتخابات التشريعية وإزدادت أهميته السياسية ولم يحقد عليه ساكارد وإن كان يحس في قرارة نفسه أن بإمكان أخيه أن يساعده أكثر لو أراد.

وثار ساكارد على نفسه ذات مرة، وقرر ألا يستدين من كائن من كان وخاصة بوجين.. وفي سبيل أن يحافظ على هذا القرار داق العذاب

الكثير.. وفي الأسبوع الأخير من كل شهر، لم يكن يأكل هو وأنجيل إلا الخبز الجاف، مغموسًا بأنات الحاجة والحرمان.

كانت المشكلة التي تواجه ساكارد الآن هي كيفية الحصول على رأسمال متواضع، يبدأ به محله في عالم المال، وهذه المشكلة لم تكن بسيطة، ولطالما أقلقته، خاصة وأنه فقير وزوجته فقيرة.. وشقيقه يتغابى عن حقيقة إحتياجه للمال ويكتفي بمجرد النصح الشفهي.

وعندما عاد إلى المنزل وجد زوجته جالسة تلاعب طفلتها الصغيرة في هدوء، وكانت بطبيعتها بعيدة عن مجال تفكير زوجها، ولم تكن تحس بما يعتمل في داخله من ثورة وحنق، بل أنها ركزت كل وظيفتها في رعاية المنزل، وتربية الطفلة.. أما أحلام زوجها فلم تكن تهتم بها، إن كانت حتى تعرفها.. وثار عليها ساكارد بلا سبب، وأحس بأنه مظلوم لم يأخذ فرصته في الحياة وأحس أكثر من ذي قبل بعبء الزوجة والطفلة، لذا فقد صفق الباب خلفه وقفل راجعًا إلى عرض الطريق، يمشي دون هدف ورأسه كالمحموم، مليء بالأفكار التي كانت تتصارع في داخله، حتى لتكاد تصرعه هو نفسه.

كيف يحصل على النقود.. ومن يقرضه إياها!! إنه يسير في شوارع باريس.. ينظر إلى وجوه الناس ويكاد يستوقفهم ويقول لهم:

– أعطوني بضعة آلاف من الفرنكات.. أبدأ بها خططي التي رسمتها للإنقضاض على مدينتكم تلك، لأجرد خزائنها وأستولي على كل ما فيها، وبعدها..

نعم!. وماذا بعدها!! لا شيء.. إلا أنه كان يريد أن يكون غنيًا، وكان قلقًا، متسرعًا، يخشى أن تضيع من أمامه الفرصة، أو تتغير الظروف..

***

كان للشقيقين بوجين وساكارد أخت إسمها سيدوني، متزوجة وتقيم في باريس ولم يكن ساكارد قد فكر في زيارتها من قبل، لأنه كان يعلم أنها فقيرة، وهو يكره الفقر ويبتعد دائمًا عن كل ما هو فقير، وفي الواقع لقد خشى أن تفكر أخته مرة في أن تستدين منه بضعة فرنكات ولذا قد آثر أن يبتعد عن مصدر هذا الخطر الذي يهدد موارده المحدودة.

كانت سيدوني متزوجة من أحد صغار تجار الفاكهة، الذي مات وخلفها وحيدة فإضطرت إلى أن تقف بنفسها في المتجر الذي يقع في إحدى الحواري الضيقة في المنطقة الشعبية وكانت تسكن في نفس المنزل الذي يقع فيه المتجر في شقة متواضعة، ولكن سيدوني كانت كشقيقها ذات مطامع، فلم تقنع بالوقوف طيلة النهار أمام ميزان محل الفاكهة وفي الليل تحصى ربحًا لا يتجاوز بضعة فرنكات لا يكاد يكفيها، خاصة وأن محلات أخرى كبيرة منافسة قد بدأت تظهر في الحي، وإنصرف معظم الزبائن إليها لجودة الأصناف، ولذا فقد إتجهت إلى الإتجار –إلى جانب الفاكهة– في كل شيء. وأصبحت شقتها مخزنًا كبيرًا لأشياء لا جامع بينها أو تشابه، فهي تشتري الأشياء القديمة ثم تبيعها، بيانو، أطباق، لعب أطفال، ملابس قديمة، وغيرها من الأشياء.

وأصبحت كأنها قضت طيلة عمرها تتاجر في هذه الأصناف فتحدث عنها وعن أسعارها حديث خبير مدرب.

ولكن لم تكن تلك هي كل مواهب سيدوني.. فإلى جانب عمليات البيع والشراء كانت لها علاقات مع الكثير من الأسر تسدي إليهم خدمات خاصة حتى أنها أصبحت موضع ثقة كل معارفها وما أكثرهم، وأصبحت كقائمة متحركة، مكتوب فيها ما يطلبه البعض وما يستغني عنه البعض الآخر. كانت تعرف مثلًا الأسرة التي تبحث عن زوج لإحدى بناتها حتى تغطي فضيحة على وشك أن تنكشف أو الأسرة التي وقعت في ضائقة مالية وتحتاج إلى ثلاثة آلاف فرنك مثلًا، أو الرجل الذي معه مثل هذا المبلغ ويريد إقراضه إلى آخرين في مقابل فائدة باهظة.. وكانت تعرف أشياء أكثر حساسية من تلك؟ تعرف المرأة التي ينصرف عنها زوجها والتي تكاد تقتلها الوحدة، وفي الجهة المقابلة تعرف الشاب الذي يسعى إلى التعرف على السيدات وتكوين صداقات معهن، أو البارون الذي يريد أن يقضي بعض الوقت مع فتاة جميلة في مقابل مبلغ من المال يقدم لها في صورة هدية متواضعة! فكانت تجد سعادة في تحقيق رغبات الناس، وحل أزماتهم، وكانت تكسب من ذلك الثقة والمال والهدايا في نفس الوقت.

وباختصار كانت سيدوني إمرأة أعمال ناجحة، ولم تكن فقيرة على عكس ما تخيل ساكارد بل كانت تكسب ما يكفيها إن لم يزد، وكانت بردائها الأسود دائمًا، وقبعتها السوداء. تكاد تكون أحد معالم باريس الشهيرة.. وعندما ألحت على ساكارد مشكلة النقود التي يريدها ليبدأ بها مشروعاته التي درس خططها كثيرًا وعندما أحس أنه لا أمل في أن يساعده شقيقه يوجين إتجه تفكيره بطبيعة الحال إلى سيدوني، ومع إحساسه بأنها قد لا تملك ما يمكن أن تقترضه له، إلا أنه تمنى ألا تعدم –بما لها من إتصالات– وسيلة ليصل إلى ما يريد.

ورآها بعد أن حصل على عنوان مسكنها من بوجين، مخفيًا بالطبع غرضه الحقيقي من الزيارة، وتظاهر أن الشوق والشوق وحده هو الدافع إلى زيارته لسيدوني.

وكان ساكارد من الذكاء بحيث لم يفاتح أخته في أول زيارة بما يريد بل إكتفى بسؤالها عن الصحة والأحوال ودعاها إلى زيارة زوجته وطفلته، ولكنها كانت مثله، ومثل شقيقه تضع العلاقات الأسرية والعاطفية في المقام الثاني بعد العلاقات التي كانت تلوح منها بارقة كسب أو غنيمة. إن عميلًا يشتري منها أحد أجهزة البيانو أو صديقًا يعطيها هدية في مقابل خدمة تؤديها له، لهو خير من أخ لا ترجو من ورائه مكسبًا. إحساس غريب بلا شك، ولكنه ظاهرة طبيعية في هذه العائلة التي يجري الطموح في دماء أفرادها ذكورًا وإناثًا.

وفي إحدى زيارات ساكارد لسيدوني فاتحها في الموضوع مستعينًا بكل ما أوتي من لباقة، وإستمعت إليه سيدوني في هدوء، ولم تقاطعه بكلمة إلى أن أنهى حديثه كالقاضي الذي لا يصدر الحكم إلا بعد سماع كل ما لدى المتهم من أقوال، وأخيرًا هزت رأسها وقالت:

– إذن.. فأنت تريد.. أن تقترض مبلغًا من المال.

وبرق بصيص من الأمل في نفس ساكارد وألقى بكل عواطفه في صوته وهو يقول:

– نعم يا سيدوني..

وأطرقت هنيهة ثم قالت بنفسي هدوئها:

– وأنت مدرك بالطبع أني شخصيًا لا أملك هذا المبلغ.

ورد في حماسة:

– طبعًا يا سيدوني.. ولكن معارفك الكثيرين.

وأخيرًا نطقت بحكمها الفاصل في الموضوع وقالت:

– لن يرضى أي أحد أن يقرضك فرنكًا واحدًا.. إنك لا تملك أي نوع من الضمان لرد المبلغ.

وأطرق ساكارد برأسه في أسى، ثم نهض –لينصرف– حتى دون أن يودع سيدوني، ذلك أنها كانت مثل الأمل الوحيد أمامه للحصول على المبلغ المطلوب، وها هو الأمل يتحطم.. وقبل أن يغادر الباب تنهدت سيدوني تنهدة عميقة وقالت:

– لو لم تكن متزوجًا ..

وإخترقت تلك الجملة أذنيه، ولكنه لم يدرك معناها أو ما تعنيه أخته، وإنصرف.

ومرت بضعة شهور ونشبت حرب محلية في إحدى دول أوربا البعيدة، ولكن أثر هذه الحرب الإقتصادي إمتد إلى باريس نفسها، فنشطت مصانع السلاح لتبيع إنتاجها لكلا الجانبين من المتحاربين وراج سوق السماسرة والجواسيس والتجارة وأصبح قصر البلدية يعج بزائريه كل ليلة وكلما زاد عدد القتلى في الحرب الدائرة، زادات ثروات بعض تجار فرنسا، وكان ساكارد يكاد ينفجر من الحنق ونفاد الصبر، إن فرص الإثراء تثري أمامه

ولكنه لا يملك المفتاح المؤدي إلى أبوابها وإصطرعت في داخله أحلامه وذكاؤه وعزيمته وأصبت كلاعب السيرك الذي يسير على حبل مشدود، يكاد يدفع نفسه إلى مزالق خطرة ما دام قد أعوزه الطريق المأمون.

وحدث أن سقطت زوجته أنجيل صريعة المرض فإختل الجانب الوحيد المنتظم في حياته وهو جانب المنزل.. ذلك أن أنجيل كانت تبذل كل جهدها لتوفر لزوجها الراحة بعد الإنتهاء من عمله، وكانت لا ترهقه بالمطالب مثل غالبية الزوجات، بل تسعى جاهدة إلى أن تحرم نفسها من كل شيء حتى الطعام في بعض الأحيان لتعطيه لبنتها أو لزوجها.. وأحس ساكارد أن القدر يعانده وضاق بزوجته المريضة، ولكنه لما رأى إشتداد حدة مرضها، لم يجد بدًا من إستدعاء الطبيب الذي فحصها مليًا، وعلى باب الحجرة سأله ساكارد وهو يودعه:

– هل سيستمر مرضها طويلًا يا دكتور؟

وأجاب الطبيب العجوز في هدوء:

– أخشى أن يستمر إلى ما لا نهاية.. إن إلتهابًا شديدًا قد أصاب رئتيها. ولقد تأخرتم كثيرًا في إستدعائي.

وتساءل ساكارد في حزن:

– هل تعني..

وهز الطبيب رأسه وإنصرف وهو يقول:

– أرجو أن تدركها رحمة الله.

وحزن ساكارد على زوجته التي راحت تقاسي في صمت وتتألم بلا ضجيج، وسهر يمرضها وإنقطع عن عمله كي يتفرغ كلية لرعاية تلك الزوجة المسكينة.

ترددت سيدوني على مسكن ساكارد لزيارة أنجيل في مرضها وظهرت في تلك الظروف موهبة أخرى من مواهبها لم تكن قد عرفت عنها بعد، وهي العطف على المرضى والتظاهر بتمريضهم ورعايتهم، ذلك أنها راحت تتردد كل مساء تقريبًا على أنجيل المسكينة، تجلس بجانبها وتذرف بضع دموع عليها متمنية لها شفاءً عاجلًا، ماسحة على جبهتها وكلمات «يا جميلتى، يا حبيبة قلبي»، تخرج من شفتيها مرات كثيرة.

وإشتدت وطأة المرض على أنجيل، وفي إحدى الأمسيات إستدعى الطبيب الذي ما أن فحصها حتى صرح بأنها لن تعيش حتى الصباح.

وإنصرف الطبيب وبدأ شبح الموت يزحف على الشقة المتواضعة وإنزوى ساكارد وقلبه يكاد ينفطر حزنًا وأسى على زوجته المسكينة، بينما جلست سيدوني بجوار فراش المريضة في صمت. وكان ساكارد بين الفينة والفينة يأتي ليلقي نظرة على الزوجة المسجاة على فراشها في إنتظار ملاك الموت الذي سيخلصها من آلام المرض ومشقة الحياة.

وكانت الطفلة تلعب في الحجرة المجاورة غير مدركة الكارثة التي توشك أن تحل بها بفقدها أمها، ولا بما يخبئه لها المستقبل وتوجه إليها ساكارد ليلاطفها أو ليشغلها حتى لا تأتي إلى حجرة أمها، و جلس على أحد المقاعد بجوار النافذة ساهمًا ساكتًا.. وما هي إلا هنيهة حتى لحقت به أخته

سيدوني وسحبت مقعدًا وجلست بجواره وأنفاس أنجيل المتحشرجة تتناهى إلى أسماعهما كدقات الموت الحزينة.

وهمست سيدوني إلى أخيها قائلة:

– إنها لن تعيش حتى الصباح كما قال الطبيب.

ولم يجب ساكارد، بل أحنى رأسه في حزن بينما واصلت أخته الكلام قائلة:

– لقد كانت فتاة طيبة.

وصدمه أن تتحدث أخته عن أنجيل كما لو كانت قد ماتت فعلًا ولم يجب أيضًا. وصمتت سيدوني لحظات لم يكن يسمع خلالها إلا صوت أنفاس أنجيل وهي تتردد في صعوبة ووهن، وصوت الطفلة وهي تضرب الكرة على الحائط فترتد إليها مرة ثانية.. ثم قالت سيدوني:

– وقد تجد زوجة ثانية أكثر ثروة أو أجمل ولكنك لن تجد أبدًا زوجة مخلصة ومطيعة كأنجيل المسكينة.

وللمرة الثانية إمتعض ساكارد ولكنه أحس بذكائه أن وراء كلمات شقيقته شيئًا معينًا تود الإفصاح به، وإن هذا التظاهر بالحزن على أنجيل وكيل المديح لها إنما هو مقدمة «سيدونية» لشيء آخر لابد آت.

وبعد أن جففت سيدوني عينيها من قطرات الدموع التي ذرفتها في يسر وسهولة وسرعة أيضًا نظر ساكارد إليها وسألها:

– أختاه.. إنك مثلي وأنا أفهمك تمامًا.. هل تودين أن تقولي شيئًا؟

وكان كلامه مباغتًا لها، ولذلك فقد نظرت إليه في دهشة لعدة لحظات بينما أردف يقول:

– قولي ما عندك يا سيدوني..

وردت عليه قائلة:

– لقد كنت أفكر في الموضوع الذي حدثتني عنه فيما مضى.

ثم تظاهرت بالتردد وهى تخفي وجهها بيديها وقالت:

– لكن.. الوقت غير مناسب الآن.. صدقني.. إن قلبي يتمزق على المسكينة.

وذرفت عيناها بضع قطرات من الدمع. جففتها ثم نظرت إلى ساكارد لترى وقع كلماتها ودموعها ولكنه قال لها بوجه غير معبر:

– لا عليك من أنجيل الآن.

وكانه أعطى لها التصريح بمواصلة الكلام فقالت دون أدنى تردد:

– إني أعرف فتاة يود أهلها أن يزوجوها في الحال. ولها عمة على إستعداد لأن تدفع مبلغًا كبيرًا للزوج المنتظر.

وسكتت ثم تكلمت ولكنها لم تتحدث عن الفتاة إنما عادت إلى الحديث عن أنجيل المسكينة التي ستموت قبل إنبلاج الصباح، وكان هدفها هو أن تلعب على أعصاب ساكارد وتجعله يفقد صبره فيسألها هو بدلًا من أن تحكي هي كل ما عندها.

وتحقق لها ما تريد إذ سألها ساكارد على الفور:

– قلت لك دعينا من سيرة أنجيل وأخبريني.. لماذا يريد أهل الفتاة أن يزوجوها؟

وردت سيدوني قائلة:

– لقد.. لقد كانت ضحية أحد الذئاب البشرية، وكاد أبوها أن يقتلها لولا أن تدخلت أخته وأخبرته أن الرجل الذي فعل تلك الفعلة إنما هو رجل له مركزه ويود أن يصلح غلطته.

وقاطعها ساكارد قائلًا:

– إذًا فهو سيتزوجها.

ولكن سيدوني هزت رأسها قائلة:

– كلا

وتساءل ساكارد في دهشة:

– ولم؟

وأجابت سيدوني:

– لأنه متزوج.. وله أولاد.

وصمتت وصمت ساكارد وران على الحجرة صمت مطبق حتى أنفاس أنجيل التي كانت تتناهى إليهم من الحجرة المجاورة خفتت وكانت الطفلة قد توقفت عن اللعب وجلست في أحد الأركان تلعب بإحدى عرائسها.

وقطع ساكارد الصمت عندما سأل سيدوني:

– وكم عمر الفتاة؟

وردت مجيبة:

– تسعة عشر عامًا.

وعاد يسأل:

– ومنذ متى حدث ذلك الـ..

وأجابت سيدوني:

– منذ ثلاثة أشهر تقريبًا.

وتساءل مرة أخرى كمن يريد أن يكمل معلوماته ليصل إلى قرار:

– وهل عائلتها غنية ومحترمة؟

وردت سيدوني:

– إنها من الطبقة المتوسطة ذات التقاليد القديمة. والوالد كان قاضيًا ثم أحيل إلى المعاش، ولديهم ثروة كبيرة.

وعاد يسألها:

– وما هي التضحية التي ستتحملها العمة؟

وأجابت سيدوني على الفور.

– مائة ألف فرنك.

وسادت بينهما فترة أخرى من الصمت.. وكانت سيدوني قد كفت عن البكاء الآن، وإستعاد صوتها نبرته الطبيعية ذلك لأنها كانت تمارس عملًا وتعقد صفقة، ونظر إليها ساكارد مليًا، ثم قال بعد فترة:

– وأنت.. ماهو نصيبك من هذه الصفقة؟

وأجابت:

– أوه يا شقيقي.. لا أظن أنك ستبخل علي «بجزء مما سوف يعطيك الله.. على كل حال هذا ليس وقت الحساب».

وعادت إلى الصمت فلما لم يعقب، سألته:

– هل حزمت أمرك.؟ لقد وعدت العمة أخاها بأن تعطيه إسم الشخص الذي إعتدى على الفتاة غدًا.. ليتزوجها فإذا قبلت أن تكون هذا الرجل.. فسوف أرسل إليهم بطاقة بإسمك في صباح الغد..

وكأنما أفاق ساكارد من حلم طويل، فنهض من مكانه منزعجًا حين شعر بأن عليه أن يبدي رأيًا في أمر خطير كهذا.. وقال في تردد:

– أنا.. لا.. لا أستطيع.. أعني أنني قد..

ونظرت إليه سيدوني نظرة صامتة طويلة.. ولكنها كانت معبرة، لأنها أذابت تردد ساكارد، فتوجه إلى مشجب في ركن الحجرات كانت سترته معلقة عليه ومد يده إلى إحدى جيوبها وأخرج بطاقة وعليها إسمه وناولها لسيدوني دون أن ينطق بكلمة، وتناولت سيدوني البطاقة وطلبت منه مظروفًا كتبت عليه عنوان الأسرة بعناية، ثم غادرت الغرفة إلى السلم دون

أن تنظر ناحية غرفة أنجيل.. وكانت الساعة في ذلك الوقت قد بلغت التاسعة مساءً.

وشعر ساكارد بقلق شديد وتصببت بعض قطرات من العرق البارد فوق جبهته التي أسندها على زجاج النافذة وحاول أن يجمع شتات أفكاره وأن يتذكر الربع ساعة الأخيرة من حديث أخته ولكن دوامة القلق الكبيرة حاولت دون تكامل الصور وتحرك لا إراديًا إلى الحجرة التي ترقد فيها أنجيل.

وشعر برجفة عندما وقع بصره عليها.. كان قد نسيها تمامًا وهو يعقد تلك الصفقة مع سيدوني.. ولكنها موجودة راقدة على فراشها وعندما رأته كانت عيناها مفتوحتين.. ونظراتها مصوبة إليه في صممت وتركيز شديد وشفتاها تهتزان عن رغبة في الكلام.. ولكن الوهن حال دون أن تخرج الكلمات من بين شفتيها اللتين إكتستا بصفرة الموت وشحوبه وإلتقت عينا ساكارد بنظرات زوجته وأحس أنها سمعت حديثه مع سيدونى، وأحس أيضًا أنها باتت تخاف منه أكثر مما تخاف الموت وسرت رعدة في بدنه وكأن شيطانًا مجنونًا يتملكه، لولا أنه طرده بسرعة، لا حبًا في الخير أو عطفًا على زوجته ولكن لأن رائحة الموت التي تنبعث من الغرفة كلها ولدت لديه إحساسًا بالجبن لم يستطع الخلاص منه.

وإستمرت نظرات أنجيل الهلعة مصوبة إليه.. كانت تدرك أنها على شفا الموت وأنها ستودع الدنيا بعد قليل ولكنها كانت تخشى أيضًا أن يتعجل زوجها موتها..

وإقتربت النهاية وخفت حدة نظراتها وكأنما خفت أيضًا حدة خوف

أنجيل المسكينة من ساكارد، وإلتمست له عذرًا لأطماعه التي كثيرًا ما قاست منها في صمت، وخيل لساكارد أن أنجيل توجه إليه في صممتها لومًا لاذعًا إخترق ضلوعه وإستقر في قلبه فأيقظ بقايا إحساس إنسانى كان لا يزال راسبًا فيه.. وهم بأن يتقدم ناحيتها ليطلب منها المغفرة وليبرر موقفه ولكنها بإشارة ضعيفة من يدها طلبت إليه أن يظل مكانه وألا يقترب منها وألا يتكلم أيضًا، فجمد في مكانه وإن كان قد أحس من نظراتها التي كانت وسيلتها الوحيدة الآن لنقل إنفعالاتها بأنها قد غفرت له كل أخطائه.

ومرت دقائق ثقيلة.. طويلة كئيبة.. ثم لفظت أنجيل آخر أنفاسها في صمت يناسب طبيعتها الهادئة وتركت الدنيا كما عاشت فيها، إن تعذبت فلنفسها دون أن تحمل أحدًا جزءًا من آلامها.. إلى أن أدركتها رحمة الله.. فماتت في هدوء..

***

في مساء اليوم التالي بعد إتمام مراسم الجنازة وبعد أن إستقرت أنجيل في مرقدها الأخير، إصطحبت سيدوني شقيقها وطفلته إلى شقتها حيث جلس الإثنان يتدبران ما يجب أن يفعلاه.. وإستقر الرأي على أن ترسل الطفلة إلى دكتور بسكال وهو شقيق آخر لساكارد وبوچين وسيدوني وكان متزوجًا ولكنه لم ينجب ويقيم في بلازانز وكان قد عرض على ساكارد منذ مدة أن يأخذ الطفلة لتقيم معه.

وبعد أن قدمت سيدوني قدحًا من الشاى لساكارد وأحضرت بعض قطع البسكويت للطفلة قالت:

- والآن يا ساكارد.. ما هي خططك للمستقبل؟

ولم يرد ساكارد لأنه كان يعرف كما كانت تعرفه هي تمامًا.. نوع تلك الخطط، لذلك فقد آثر الصمت بينما إستمرت هي تقول:

- من رأيي ألا تعود إلى بيتك القديم.

وتساءل ساكارد.

- لماذا؟

وردت سيدوني:

- لأنه لا يناسب نسبك الجديد. أعتقد أنه من الأفضل أن تقطن في شقة أنيقة مؤثثة حتى إذا زارك أهل زوجتك المقبلة أخذوا عنك فكرة طيبة.

وإرتاح ساكارد لهذا الرأي وإن إحتفظ بإرتياحه لنفسه.

وقالت سيدوني مواصلة حديثها:

- أما شقتك القديمة ومتاعك الموجود بها.. فأرى أن تتخلص منه بالبيع حتى تقطع كل صلة لك بالماضي.. ويمكنك أن تشتري بثمن تلك الأشياء بعض الملابس الأنيقة اللائقة حتى إذا تحدد لك موعد للقاء والد الفتاة تكون على أتم الإستعداد.

كانت تتكلم كرجل أعمال يرسم أطراف عملية يقوم بها بكل دقة حتى تنجح وتدر ربحًا هائلًا.

ولم يكد يمضي يومان حتى سافرت الطفلة لتقيم مع عمها، وكانت

سيدوني في تلك الأثناء تبحث عن مسكن ملائم لشقيقها ووجدته عند إحدى معارفها، شقة مكونة من غرفتين أثاثها جميل حديث وعلى الجدران بعض اللوحات الزيتية. ولم تنس سيدوني أن تقول لساكارد وهو ينتقل إلى ذلك المسكن.

– لا تنس أن تقول أن هذا الأثاث ملكك.. ولن يكون هناك من يرتاب في صدقك المهم أن تظهر بمظهر ملائم.. ولا شيء يهم بعد ذلك.

***

كان مسيو بيرود دي شاتل سليل أسرة برجوازية عريقة تمتد في عراقتها إلى جذور عميقة أكثر من العديد من الأسر النبيلة الغنية التي ذاع صيتها في تلك الأيام. وكان والده جمهوريًا، فقد حياته على المقصلة وهو يهتف بالجمهورية ونشأ مسيو بيرود وهو متشبع بهذا التاريخ ولم يكن يخفي ميوله الجمهورية أبدًا ولم تكن تنقصه الشجاعة لإبداء رأيه مهما كانت النتائج ذاكرًا بإستمرار أن والده مات دفاعًا عن رأيه وهو على إستعداد لسلك نفس السبيل.

ولقد إشتغل مسيو بيرود قاضيًا وقرر إعتزال العمل لأن الحكومة أرادت أن تضمه لهيئة المحكمة التي شكلت لمحاكمة بعض الجمهوريين الذين حاولوا القيام بإنقلاب ضد الإمبراطورية ولم يرض ضميره أن يقف موقف القاضي يحاكم أناسًا كل تهمتهم هي الوطنية وكل مطالبهم هي الحرية والإخاء والمساواة.. ولذا فقد فضل الإعتزال وهو في سن الخمسين.. وعاش السنين العشر التالية في هدوء.

وتصادف أن ماتت زوجته في نفس السنة التي إعتزل فيها العمل أثناء ولادتها لطفلتها الثانية التي أسموها كريستين وكانت طفلتهما الأولى رينيه في الثانية من عمرها في ذلك الوقت.

وكان لمسيو بيرود شقيقة إسمها مدام أوبرتوت على شيء من الثراء وتوفى زوجها دون أن ينجبا أطفالًا، فجاءت للإقامة مع أخيها لتساعده على رعاية أمور الطفلتين..

وكالعادة فازت كريستين بنصيب وافر من إهتمام العمة على إعتبار أنها الصغرى بينما دخلت رينيه إحدى المدارس الداخلية ولم تكن تذهب إلى منزل الأسرة إلا أيام الآحاد والعطلات فقط وكانت الأوقات التي تقضيها بالمنزل مليئة بالضجيج والصخب لأن رينيه لم تكن هادئة بطبيعتها.

وإستمرت حياة الأسرة هكذا هادئة إلى أن بلغت رينيه التاسعة عشرة وأدت آخر إمتحان لها في المدرسة ثم دعتها إحدى صديقاتها لقضاء عدة أيام في مزرعة أسرتها وفرحت رينيه كثيرًا لهذه الدعوة لأن المزرعة وسط الحقول الواسعة ولأنها ستجد مجالًا متسعًا لنشاطها الذاتي الذي لم يكن يهدأ أبدًا.

ولاحظت العمة بعد عودة رينيه أنها تبدو صامتة حزينة على غير عادتها ولم تعر الموضوع إلتفاتًا في بادئ الأمر إعتقادًا منها أنها حالة مزاجية وقتية لن تلبث حتى تزول، ولكن إستمرارها أقلق بال العمة وإنتهزت فرصة خلت فيها إلى رينيه وسألتها عما بها ولم تكد رينيه تسمع هذا السؤال حتى إنفجرت باكية ملقية برأسها فوق كتف عمتها التي ربتت عليها برفق

وحنان، وما أن هدأت نفسها بعض الشيء.. حتى راحت تحكي لعمتها كيف أن رجلًا صادفته خلال إقامتها لدى صديقتها غرر بها.. وأن الدنيا قد إسودت في عينيها حتى أنها تفكر جديًا في الإنتحار.

صدمت تلك الوقائع العمة، ولكنها تمالكت نفسها وسألت الفتاة:

– هل تعرفين إسم الرجل؟

وأجابت رينيه:

– نعم إسمه مسيو سالون وهو يملك مزرعة تجاور مزرعة أهل صديقتي..

وضربت العمة برجلها على الأرض في إصرار وهي تقول:

– يجب أن يتزوجها هذا الوغد فورًا..

ولكن رينيه إنفجرت باكية من جديد. ودهشت العمة وسألتها عن السبب في بكائها وأجابت رينيه:

– إنه متزوج. وله أولاد..

وأسقط في يد العمة.. وتعقدت أمامها المشكلة وصمتت قليلًا ثم قالت:

– على كل حال، يجب أن يعلم والدك بما حدث..

وتحول مسيو بيرود الوديع الهادئ إلى وحش هائج وهو ينصت إلى نبأ الفضيحة التي نقلتها له أخته مدام أوبرتوت بكل وسعها من لباقة معتمدة أن تبين كيف أن الرجل خدع الفتاة المسكينة قليلة الخبرة عديمة التجربة

وقال مسيو بيرود والشرر يتطاير من عينيه:

– لابد من قتلها.. اللعينة.. لقد ظل إسم العائلة نظيفًا منذ قرون وها هي اليوم تلطخه وتلحق به العار..

وحاولت مدام أوبرتوت أن تهدئه قائلة:

– وماذا يفيدك قتلها؟

وأجاب الأب الثائر:

– سأقتله هو أيضًا..

وإستطاعت العمة بعد جهد أن تقنع الرجل الذي قضى عمره في منصة القضاء أن من الخير أن يتريث فالفرصة لم تضع بعد لكي يوضع كل شيء في نصابه الصحيح وأن الرجل لن يمانع مطلقًا في الزواج من رينيه إصلاحًا لخطئه.. وإستهلت الأب فرصة لترتب كل شيء.

***

ولا أحد يدري كيف وصلت تلك الأنباء إلى سيدوني، حيث أضافته إلى رصيد الأسرار التي تتحرك بها، وضعتها في قائمة المشاكل التي تسعى إلى إيجاد حل لها وإعتبرتها في الواقع صفقة مربحة. وما أن سمعت الطبيب يلقي إليها وإلى أخيها نبأ قرب موت أنجيل حتى تحرك في داخلها عقل رجل الأعمال الذي لاحت أمامه فرصة لابد من إنتهازها. وهكذا عرضت على ساكارد أن يكون ذلك الزوج.

وعندما إنطلقت سيدوني إلى منزل آل بيرود ومعها بطاقة ساكارد

قابلت العمة إليزابيث بمفردها وأنهت إليها الخبر متعمدة أن تبين أنها ضغطت على شقيقها ليتقدم إنقاذًا لسمعة الفتاة والأسرة التي هي عزيزة على قلبها.

وصدقت العمة إليزابيث المسكينة ما قالته سيدوني وحمدت الله الذي أرسل لها تلك المرأة الطيبة وأخاها الأكثر طيبة في الوقت المناسب، قبل أن ينفد صبر الأب ويتملكه الشيطان مرة ثانية ويقتل رينيه المسكينة.

وتم لقاء تمهيدي بين العمة إليزابيث وبين ساكارد في بيت سيدوني، وكان هذا اللقاء بمثابة «جس نبض» من الطرفين.

وحاول ساكارد أن يظهر في هذا اللقاء بمظهر رجل الأعمال الذي جاء ليعقد صفقة لا ليتفق على زيجة وإستطاع أن يدخل في روع العمة نفس الإحساس الذي غرسته سيدوني في نفسها من قبل، وناقش بإستخفاف موضوع المائة ألف فرنك التي أخبرته سيدوني بأن العمة ستعطيهما لزوج رينيه قائلًا للعمة:

– إن مائة ألف فرنك لتعتبر مبلغًا مضحكًا بالنسبة لزوج الآنسة رينيه.
  وتعمد في حديثه أن يضغط على كلمة آنسة بطريقة لم يخف معناها على العمة التي ظلت صامتة بينما إستمر ساكارد يقول:

– صدقيني يا مدام أوبرتوت.. إن مسيو بيرود لابد أن يحتقر زوج رينيه المنتظر لو كان فقيرًا.. ولابد أن يتهمه بأنه خدع إبنته طمعًا في ثروتها.. بل ربما قام بتحريات خاصة عما أملك.

وإرتاعت العمة إليزابيث عندما سمعته يقول:

– صدقيني يا مدام أوبرتوت.. كلمة أخيرة مني.. لا يمكنني أن أتقدم لطلب يد الآنسة رينيه ومعي مائة ألف فرنك فقط هي كل ما أملك..

وسألته العمة.

– وكم تطلب إذن؟

وفي لهجة قاطعة سريعة كأنما أعد الإجابة من قبل، قال:

– مائتي ألف فرنك.. أتناولها قبل أن أتوجه لمقابلة مسيو بيرود.

ووافقت العمة إليزابيث وكان لابد أن توافق، وإنصرفت وقد أدركت تمامًا أي صنف من الرجال هو ساكارد.

وبعد عدة أيام، تمت المقابلة الثانية بين ساكارد والعمة اليزابيث، في شقة ساكارد هذه المرة.. وكانت العمة قد أخذت من أخيها مسيو بيرود تفويضًا لمباحثة ساكارد في موضوع الزواج لأنه أي بيرود –رفض أن يقابل ساكارد أو أن يضع يده في يده قبل أن يتزوج أخته ويصحح غلطته إعتقادًا منه أن ساكارد هو الرجل الذي غرر بها..

وعندما دخلت العمة إليزابيث شقة ساكارد راعتها فخامة الأثاث وحسن تنسيقه وسلامة ذوق صاحبه، وأحسست ببعض الطمأنينة، فقد كانت تخشى أن يكون شقيق سيدوني مثلها، وصدقت طبعًا أن المسكن مسكنه وأن كل ما فيه ملكه.. وعمل ساكارد من ناحيته على أن يبدو كأحد النبلاء كلامًا وتصرفًا.. وعندما ذكرت العمة مبلغ المائتي ألف فرنك قال لها كان هذا الموضوع لا يهمه كثيرًا.

– إني أعتزم أن أكتب إتفاقًا رسميًا على أن تظل الآنسة رينيه حرة التصرف في أموالها دون أي تدخل من جانب الزوج ..كما أني أصبح حر التصرف في أموالي.

ثم نظر إلى مدام أوبرتوت وقال بخبث:

– ولو أني لا أعرف بالضبط قيمة أملاك زوجتي المقبلة حتى الآن.

وردت مدام أوبرتوت قائلة:

– إن كل أملاك شقيقي مسيو بيرود تنحصر في بعض المنازل وبعض الأراضي. فهو كما تعرف كان قاضيًا وليست له تجارة. وبالرغم من غضبه الشديد من رينيه إلا أن ضميره لن يسمح له بحرمانها من الميراث، ولهذا فقد قرر أن يعطيها ضيعة صغيرة في سولوج يبلغ ثمنها ثلثمائة ألف فرنك بالإضافة إلى منزل في باريس يبلغ ثمنه مائتي ألف فرنك.

وكان ذكر هذه المبالغ مفاجأة لساكارد، ذلك أنه لم يكن يتوقع كل هذا، وكان تقديره في الواقع لا يبلغ نصفه. وأخفى دهشته عن مدام أوبرتوت وإبتسم ولم يعلق بينما إستمرت مدام أوبرتوت تقول:

– ومن ناحيتي شخصيًا.. فإني أود أن أقدم هدية لرينيه، فأنا كما تعلم لا أطفال لي وستئول ثروتي في يوم ما إلى بنات أخي ولن أغل يدي عن واحدة منهن وقعت في مأزق، ولذلك فسوف أعطي رينيه بعض قطع من أرض البناء تبلغ قيمتها مائتي ألف فرنك تقريبًا.

وإستيقظت أحاسيس ساكارد عند سماعه عبارة أرض البناء وكادت أن تفلت منه صيحة معناها. هذه هي بغيتي، ولكنه تمالك نفسه وإن لم يصعب على العمة إليزابيث أو مدام أوبرتوت كما كانت تسمى أحيانًا أن تلاحظ وقع تلك الكلمة عليه، وإستطردت قائلة:

– ولكني أود أن تؤول ملكية هذه الأرض إلى طفل رينيه الأول.

وصمتت قليلًا قبل أن تضيف قائلة في لهجة ذات معنى:

– أني لا أود أن يكون هذا الطفل عبئًا عليك أو على أي أحد وأنا مدركة تمامًا الظروف النفسية التي سيعانيها هذا الطفل وإذا ما مات فإن ملكية الأرض تؤول إلى رينيه.

وأضاف في تأكيد:

– رينيه فقط.. هيه؟

ولم يتكلم لفترة وجيزة وإن دل حاجباه المقطبان على مدى ما يشغل رأسه من تفكير عميق:

وأخيرًا سألها وعلى شفتيه إبتسامة مصطنعة:

– إنك لم تخبريني في أي شارع يقع المنزل الذي سيؤول إليه رينيه.

وأجابت العمة:

– عند تقاطع شارع بينيير مع شارع إستردج.

وأحدث ذكر هذا الموقع تأثيرًا فعالًا في نفسه، ملأه سرورًا، وأراد أن

ينهي المناقشة فقال لها مبديًا للمرة الثانية عدم إهتمامه بالموضوع:

– يا عزيزتي مدام أوبرتوت.. ألا تلاحظين أننا تحدثنا أكثر مما يجب في هذا الموضوع!

– الآن يجب أن أحدثك عن نفسي حتى تكوني على بينة من أمري وحتى لا تتهموني بأني أخفيت عنكم أي شيء مما يجب عليكم معرفته. لقد كنت متزوجًا، وماتت زوجتي.. ولي ولد وبنت يعيشان بعيدًا عني. قد تظنون أني تزوجت إبنة أخيك من أجل المائتي ألف فرنك.. حسنًا.. سوف تنسون هذا عندما يتم الزواج، وتجف دموعكم وتهدأ نفوسكم وتطمئنون إلى أن شبح الفضيحة قد إبتعد عن دياركم وأن سمعة الأسرة أصبحت في مأمن.. أما عن نفسي فأنا رجل عملي.. معقول.. أسعى إلى النجاح ولسوف أدركه.. والنجاح يا سيدتي يطهر النفس من كل خطأ.

وإنطلق ساكارد يتحدث كأنه محام أمام هيئة المحلفين يريد أن يقنعهم بعدالة موقفه وسلامته، وبدا على مدام أوبرتوت أنها صدقته ووثقت فيه، وإن حملًا كئيبًا أوشك أن ينزاح عن صدرها وصدر العائلة كلها.

وتحدد اليوم التالي للبدء في مراسم الزواج وكانت أولى الخطوات ..

***

توجه ساكارد إلى مسكن شقيقه بوجين الذي أصبح عضوًا في البرلمان ليخبره بنبأ زواجه وقال له:

– لقد سبق أن طلبت مني أن أتلفت حولي وأن أبحث بدقة عن فرصة مناسبة كي أنتهزها.. وها قد لاحت لي تلك الفرصة.

وإبتسم لوجين وقال:

– لقد كنت على ثقة من أنك ستصل إلى مبتغاك بسرعة.. وها أنت قد وصلت.. عن طريق إمرأة.

وغضب ساكارد ولكنه أخفى غضبه وأحس بوجين أنه جرحه فإبتسم وربت على كتفه قائلًا:

– لا عليك، سوف أحضر عقد الزواج وأوقع عليه كشاهد.

وقبل أن يتجه الجميع إلى الكنيسة لإتمام مراسم الزواج، كان لابد لساكارد أن يرى عروسه.. فصحبته مدام أوبرتوت إلى منزل الأسرة وصعدت به إلى غرفة بالدور العلوى، عرف في التو أنها غرفة رينيه الخاصة.. وكانت غرفة فسيحة أثاثها بسيط ولكنه ينم عن ذوق سليم، وكانت هنالك بعض اللوحات الزيتية وكلها لمناظر طبيعية معلقة على الحالة بينما إستقر بيانو فخم في أحد الأركان..

ولم تكن رينيه بالغرفة ساعة أن دخلها ساكارد، فتركته العمة دقائق بمفرده، وخرجت، وجلس على أحد المقاعد يجيل النظر في كل أرجاء الغرفة.. وعقله مشغول يتخيل صورة ما لرينيه. هل هي جميلة أم قبيحة، قصيرة أم هيفاء.. بدينة أم نحيفة.. ولكنه، في الواقع لم يكن يعلق أهمية لهذه الصفات، ولا للصورة التي ستبدو بها رينيه، لقد عقد الصفقة ورضى بشروطها، فليس أمامه أن يتراجع قيد أنملة.

وسمع همسًا أمام باب الغرفة ثم دخلت العمة وخلفها بخطوات دخلت رينيه وراءه جمالها، ولكنه كان جمالًا خجلًا حزينًا، وكان رأسها الصغير منكسًا كأنها لا تود أن ترى صورة الرجل الذي رضى أن يتزوجها.. لإدراكها حقيقة الدافع الذي من أجله لبس ثياب المنقذ النبيل.

وقامت العمة بمهمة تقديم كليهما للآخر ومد ساكارد يده مسلمًا وهو ينظر إليها في إعجاب وأحس بأنه لو كان قد رآها من قبل لقبل الزواج منها دون أدنى شرط، أما هي فلم يكن أمامها مجال للإختيار، وأحست أن القدر هو الذي حدد لها هذا الزوج وعليها أن تقبله، وإن كانت في الواقع لم تر فيه عيبًا يمنعها من قبوله زوجًا لها، اللهم إلا فارق السن الكبير..

ولم تدم تلك المقابلة سوى دقائق تبودلت فيها كلمات معدودة معظمها صدر عن ساكارد الذي وعد الآنسة رينيه بأن يبذل كل جهده لإسعادها وأبعاد كل ذكريات الفترة المريرة التي

مرت بها.

ولم تكن تلك هي المقابلة الوحيدة التي تنتظر ساكارد، بل إنه توجه بناء على دعوة مدام أوبرتوت مع رينيه إلى حجرة أخرى في الطابق الأول وكان مسيو بيرود في إنتظارهما هناك.

تقدمت رينيه إلى حين وقف والدها صامتًا، ووقفت أمامه في خشوع ثم قالت:

– إغفر لي يا أبي..

ونظر إليها الأب نظرة جافة، ولكنه كان يتجلد ويحاول ألا يضعف أمامها أو أمام ذلك الرجل الواقف بجوارها، والذي يعتقد أنه هو الذي غرر بها.

ولم تستطع رينيه أن تظل واقفة هكذا، فألقت بنفسها بين ذراعيه وإنهارت مقاومته، فإحتضنها وقبلها، نظر إليها نظرة كانت هي والقبلة إعلانًا صريحًا للمغفرة.. ثم إلتفت إلى ساكارد وما يده إليه في تردد ليصافحه وقال له:

– أرجو أن تمحو تصرفاتك المقبلة كل أثار الماضي..

وقبل أن يجيب ساكارد إستطرد مسيو بيرود قائلًا:

– لقد عذبتنا فعلتك كثيرًا.. أكثر مما تتصور..

وتألم ساكارد لما حمله صوت الرجل من مرارة، وإلتفت نحو مدام أوبرتوت التي وقفت بالقرب من باب الغرفة ترقب ما يجرى دون أن تتدخل فيه، وكاد أن يقول لها «إني لا أحتمل كل هذا» غير أنه تجلد إلى أن إنتهت تلك المقابلة التي كانت كالواجب الثقيل على نفسه.

وتمت مراسم الزفاف في الكنيسة وحضر بوجين وشهد على العقد، الأمر الذي عزز مركز ساكارد، وكان على العروسين أن يقضيا بضعة أيام في منزل مسيو بيرود إلى أن يستطيع ساكارد تدبير مسكن ملائم له ولزوجته..

وسخر ساكارد كل ذكائه ولباقته ليكسب صداقة حميه وكذلك كريستين شقيقة رينيه ولم تنقض بضعة أيام، حتى كان يلاعبها في حديقة المنزل

الصغير في الصباح وحتى كان يجالس مسيو بيرود ويلاعبة الشطرنه في بعض الأمسيات. أما بالنسبة لرينيه، فقد كانت تنظر إليه دون أي إحساس، لا حب ولا كره وروضت نفسها على أن تتعود صحبته، لإدراكها أنه قدر والقدر لا مناص من تقبله، وقاومت في أيامها الأولى إحساسًا بالكره حاول أن ينبت في نفسها ثم إكتفت بعدم كرهه طالما لم تستطع أن تحبه.

***

ولم تطل إقامة ساكارد وزوجته طويلًا في منزل مسيو بيرود لأنه –أي ساكارد– لم يرد أن يكون عبئًا على أحد، كما أنه أراد في الواقع أن ينفرد بمسكن خاص له ولزوجته ليبدأ مشروعاته بعيدًا عن رقابة أو تدخل أي أحد.

وإستطاعت سيدوني كالعادة أن تبحث لشقيقها ساكارد عن مسكن في الحي الجديد الذي إستحدث في شمال باريس والذي أطلق عليه إسم باريس الجديدة. وساعدت العمة إليزابيث في تأثيثه أثاثًا فاخرًا دفعت نفقاته من مالها الخاص.. كما دفعت إيجار المسكن لمدة ثلاث سنوات سلفًا، وأعطت مفتاح المسكن وعقد الإيجار إلى ساكارد وهو جالس بمفرده على مقعد مريح في حديقة منزل بيرود قائلة:

– إن هدية الزواج التي إشترطت أن تؤول إلى طفل رينيه لم تكن كافية في الواقع ولذلك فكرت في أن أقدم لكم هدية ثانية.

وكانت مفاجأة لساكارد وقال لها وهو يحاول إنتقاء كلمات يشكرها بها:

– إن هذا عمل طيب يا مدام أوبرتوت.

وردت العمة قائلة:

– إني أفعل ذلك من أجل رينيه.

وضحك وقال:

– حسبت هديتك الأخيرة من أجلي.

وقالت العمة:

– إني لن أخبر رينيه بالطبع بأني التي دفعت ثمن أثاث المنزل أو قيمة إيجاره.. بل سأجعلك تبدو كانك أنت الذي دفعت.. ولكن..

وقاطعها ساكارد وهو يبتسم:

– يبدو أن هناك شروطًا للهدية.

ولكن العمة طمأنته قائلة:

– إن كل شروطى هي أن تحسن معاملة الطفل.. وتحسن معاملة رينيه أيضًا.

وأنتقل الزوجان إلى مسكنهما في شارع ريفولي.. لتخط رينيه أولى سطور حياتها في ذلك الحي الهادئ الجديد الذي أصبح فيما بعد من أفخم أحياء باريس وأغناها ولينطلق ساكارد بلا عائق، ينتهز الفرصة ويتحينها ليحقق الأحلام التي طالما راودته.

وكانت خطة ساكارد غاية في البساطة والذكاء معًا. ذلك أنه أثناء عمله في البلدية وإختلاطه بعملائه والمترددين عليه من علية القوم ورجال الحكومة ورجال الأعمال، أستطاع أن يجمع بعض المعلومات عن

المشروعات الإنشائية والعمرانية الجديدة التي سيقوم بها المجلس البلدي تنفيذًا لرغبة الإمبراطور في أن تصبح باريس أكبر مدينة في العالم وأكثرها جمالًا ونظامًا. وكانت خطة ساكارد أن يشتري المنازل القديمة التي يعرف مقدراتها في المناطق التي ستقرر إزالتها لشق شارع أو توسيعه أو إقامة ميدان أو تشييد مبان حكومية وطالما أن هذه المشروعات لم تعلن للناس بعد فإن صاحب المنزل القديم سيرحب ببيعه لو قدم إليه ثمن معقول.. ثم إذا ما خرج مشروع التحسن أو الإنشاء إلى حيز التنفيذ وتقرر هدم هذا المنزل فإن ساكارد لن يعدم وسيلة لتقديم مستندات تدل على أنه أشترى المنزل بأربعة أو خمسة أضعاف الثمن الذي أشتراه به فعلًا وهكذا يضحك على خزانة الدولة ويأخذ أموالها بطريقة تبدو في ظاهرها مشروعة تلك كانت الخطة التي رسمها ساكارد لنفسه كطريق للإثراء.

وعندما أخبرته العمة إليزابيث وهي تفاوضه في زواج رينيه بعنوان المنزل الذي سيكتبه مسيو بيرود بإسمها وهو تقاطع لشارع بنبيير مع شارع أستروج دق قلبه من الفرح، لأن معلوماته كانت تؤكد أنه من المقرر إقامة ميدان في هذا التقاطع يصب فيه شارع رئيسي يؤدي إلى مبنى البرلمان الجديد الذي كان يجري بناؤه.. وعلى ذلك فإن هذا المنزل ستنزع ملكيته ضمن المنازل الأخرى المحيطة ولقد لمح ذات مرة للعمة إليزابيث، قبل أن يتم الزواج بأنه ما دامت كل أملاك زوجته ستكون المزرعة وأراضي البناء، والمنزل فإن الدخل الذي ستدره هذه الأملاك لن يكون كافيًا لمقابلة إحتياجاتها كسيدة مجتمع. وأقترح عليها أن تبيع المنزل وتستغل ثمنه في مشروع يدر عليها دخلًا أكبر من قيمة إيجاره كأن تشتري سندات مصرفية أو شيئًا من هذا القبيل..

هذا هو ما أقترحه على العمة في حينه وكان هدفه هو أن يشتري المنزل لنفسه ليكون أول حجر يلقيه في بحر الثروة الذي يحلم به..

وعندما فاتحت العمة أخاها مسيو بيرود في إقتراح ساكارد لم يرفض ولم يقبل، بل ترك لرينيه حرية التصرف، وأستحسنت رينيه الفكرة من جانبها لأنها ضمنت أن يكون معها مبلغ من المال تستطيع أن تجابه به مطالب ملابسها وزينتها دون أن تكلف زوجها شيئًا..

والآن وقد أصبح معه مائتا ألف فرنك وهو مبلغ لم يكن يحلم به من قبل فلقد أراد أن يتم الصفقة بمنتهى السرعة ولكنه فضل ألا يظهر على مسرح الحوادث مباشرة حتى لا يداخل زوجته أدنى شك في أنه يطمع في شراء المنزل بثمن بخس وهداه تفكيره إلى أن يستخدم وسيطًا يدفعه إلى شراء المنزل من رينيه، ثم يتنازل له عنه فيما بعد..

وكان له زميل يدعى لارنسو يعمل مساعد كاتب بالبلدية خصه ساكارد بثقته وصداقته دون بقية الموظفين وعماله لما لحظه فيه من إخلاص في العمل والتفاني فيه وطاعته لساكارد وتنفيده كل ما يطلب بحكم تبعيته له في العمل.. وكان من الطبيعي أن يقفز اسم لارنسو إلى ذهن ساكارد على أنه خير وسيط لإتمام الصفقة المربحة.

وذات ليلة وبينما جلست زوجته أمام البيانو تنقر بأصابعها على مفاتيحه محدثة أنغامًا جميلة شجية كانت هي أول من يطرب لها، سحب ساكارد أحد المقاعد وجلس بجوارها متظاهرًا بتتبع تلك الأنغام بشغف وإنفعال.. بينما كان رأسه في الواقع يغلي بالأرقام وبعمليات الضرب

والطرح والقسمة. وعندما أنتهت رينيه من عزف المقطوعة وقبل أن تبدأ في عزف مقطوعة أخرى.. قال ساكارد منتهزًا لحظات الصمت القصيرة التي تلت عزف المقطوعة.

– رينيه يا عزيزتي.. إن عزفك مدهش.

ونظرت إليه في جمود.. وقالت:

– لقد كنت من أمهر الفتيات في المدرسة.. وكانت العميدة تحب دائمًا أن أعزف لها على البيانو الخاص بها في حجرتها..

وهمت بأن تعاود العزف ولكنه أسرع قائلًا:

– بهذه المناسبة قبل أن تنسيني ألحانك الملائكية ما كنت أود أن أقوله لك.

وردت قائلة:

– ما هو؟

وأستطرد ساكارد قائلًا:

– لقد فاتحني شخص أعرفه برغبته في شراء منزل شارع بنبيير..

وبسرعة لم يكن حتى ساكارد نفسه يتوقعها، ردت قائلة:

– دعه يقابلني.

وأجاد لارنسو تمثيل دور المشتري كما رسمه له ساكارد بالضبط.

وفي قاعة الإستقبال، جلست رينيه وجلس بجوارها ساكارد بينما جلس لارنسو في مواجهتهما وقال محدثًا رينيه:

– لعل مسيو ساكارد نقل إليك رغبتي في شراء المنزل الذي تمتلكينه في شارع بنبيير..

وقاطعه ساكارد قائلًا:

– أدخل في الموضوع يا لارنسو مباشرة.. كم ستدفع ثمنًا له؟

وفي ذكاء وخبث مصطنع.. أجاب كما لقنه ساكارد من قبل:

– مائة ألف فرنك.

وأحست رينيه بالضيق لأنها كانت تعلم أن المنزل يساوى ضعف هذا المبلغ وتصارعت رغبتها في رفض البيع بهذا المبلغ مع حاجتها الحقيقية للمال، وتدخل زوجها وأخذ يعدد مزايا المنزل مساحته، عدد حجراته، ولم يتعرض لموقعه بالمرة بل بالعكس قال في معرض حديثه:

- صحيح أنه يقع في حي قديم خامل.. ولكن مائة ألف فرنك لا تكفي يا لارنسو.

وأنتهت المساومة إلى مائة وخمسين ألفًا رضيت بها رينيه، ودفعها لارنسو الذي كان قد أخذها من ساكارد وأنصرف ومعه وثيقة البيع.

وأحست رينيه أن لزوجها الفضل في رفع الثمن من مائة ألف إلى مائة وخمسين ألفًا وكان هذا الإحساس هو كل ما يريده ساكارد في الوقت الحالي.

أحتجزت رينيه لنفسها خمسين ألف فرنك لتشتري بها بعض الملابس والحلى وأعطت ساكارد المائة ألف المتبقية ليستثمرها لها بالطريقة التي يراها.. ولقد أرادت في الواقع أن ترد له جميله في مساومته مع لارنسو،

فتبدي من ناحيتها ثقتها فيه ومن ناحية أخرى حتى لا يناقشها في المبلغ الذي أحتجزته لنفسها، وفهم ساكارد ما قصدته، ولم يخيب ظنها لأنه في اليوم التالي أشترى سندات مالية تبلغ قيمتها مائة ألف فرنك مكتوبة بأسمها ناولها لها وهو يطبع على جبينها قبلة تشبه قبلات أبيها. وقال:

– أحفظيها يا عزيزتي في دولابك الخاص.

وتناولتها رينيه ووضعتها في دولابها مكتفية بقراءة أرقامها فقط، ولو كانت دققت النظر فيها لوجدت أسم ساكارد مذكورًا على أنه الشخص الذي يحق عن طريقه فقط التصرف في هذه المستندات.

وقبل أن يسترد ساكارد ملكية المنزل من لارنسو باعه مرة ثانية إلى شخص آخر ثم نقل الملكية إليه بعد ذلك بمبلغ أربعمائة ألف فرنك ثم أستدار على ساكني المنزل يطالبهم برفع قيمة الإيجار بصفته المالك الجديد وهدد بعدم تجديد العقود المنتهية وطرد أصحابها.

وأجتمع السكان وهم في حالة ذعر لبحث موقفهم من هذا الغول الذي يريد مضاعفة قيمة الإيجار. وحضر ساكارد ولارنسو الإجتماع وأحس أن النية متجهة إلى الإلتجاء إلى القضاء وخشى أن يفتضح أمر هذا البيع الوهمي الذي تم مرتين في شهر واحد ولم يجد مناصًا من تهدئة السكان بوعدهم أن رفع الإيجار سيكون أسميًا فقط – أي في العقود – أما في الواقع فلن يدفع أي ساكن أكثر مما يدفعه الآن ولمدة خمس سنوات.. وهدأت ثائرة السكان فطالما ستظل القيمة التي سيدفعوها دون تغيير لمدة خمس سنوات فلا بأس من تحرير عقود جديدة بالمبلغ الذي يريده ساكارد

بل أن أحدهم تطوع وأقترح كتابة ثلاثة أضعاف المبلغ بدلًا من الضعفين كما أراد ساكارد.. ولم يمانع معظم السكان في هذا الإقتراح. وهكذا أصبحت الثمرة جاهزة للجني.

ولم يكد يمر شهر واحد حتى خرج مشروع إنشاء الميدان إلى حيز التنفيذ وتقدم ساكارد بمستنداته إلى اللجنة التي شكلت لتقدير قيمة المنازل التي ستهدم، وكان في هذه اللجنة صديق يعمل كاتبًا في المجلس البلدي وله زوجة جميلة أهداها ساكارد حلية أشتراها بخمسة آلاف فرنك، وأنتقل تأثير الحلية من الزوجة إلى الزوج إلى الدفاتر الرسمية وقيد المنزل على أن جملة التعويض المقدر هو خمسمائة ألف فرنك.

وكانت هناك لجنة التعويضات النهائية وهي مكونة من ثلاثين عضوًا يختارهم الإمبراطور شخصيًا من بين أعضاء المجلس النيابي والمحامين والأطباء المشهورين وبعض الأسماء اللامعة وكانت مهمة هذه اللجنة هي إقرار التعويضات التي تقدرها اللجنة الأولى والفصل في التظلمات التي قد تقدم من الملاك وكان من بين أعضاء هذه اللجنة البارون جودارد ومسيو توتين دي لاروش.

أما البارون جودارد فكان من الأشخاص الذين يرفعون أي شعار طالما سيجنون من ورائه مغنمًا، وكان من رجال الإمبراطور المقربين واستغل هذه الصلة كوسيلة للإثراء وكان من المترددين على البلدية حيث تعرف على ساكارد الذي أسدى إليه بعض خدمات صغيرة أسرها البارون لنفسه للحظة المناسبة.

وكان توتين دي لاروش شريكًا في ملكية بعض الشركات التي تعمل بالتجارة ومالكًا للكثير من المنازل وكان قد تورط في علاقة غرام مع فتاة لم تكن قد بلغت سن الرشد وعلم أبوها بما كان وأراد أن يقيم دعوى ضد توتين.. الأمر الذي كان سيسيئ إلى اسمه ومركزه.

وعلم ساكارد بالأمر ولجأ إلى أخته سيدونى سيدة المواقف العصيبة وبقدرة سحرية أستطاعت أن تمحو غضب والد الفتاة، بل وجعلت لسانه ينطق بشكر توتين ومديحه وهو يضع يده في جيبه يتحسس حزمة الأوراق المالية التي دستها له مدام سيدونى وسيطة توتين، ولم ينس توتين هذا الجميل أبدًا لساكارد.

وعندما نظرت لجنة التعويضات موضوع منزل ساكارد كان أمامها التعويض المبدئي المقدر وهو خمسمائة ألف فرنك وتظلم من ساكارد يطالب فيه برفع قيمة التعويض إلى سبعمائة ألف فرنك، حتى لا يصبه الضرر، كما جاء في طلبه!!

وصاح أحد أعضاء اللجنة الذي تصادف أنه يسكن في شارع قريب من المنزل:

– يا لها من جرأة وقحة! سبعمائة ألف فرنك في منزل لا يساوي أكثر من مائتي ألف فرنك.. إني أعرف هذا المنزل يا سادة وأمر به مرتين كل يوم على الأقل.

وأنبرى له مسيو توتين لاروش قائلًا:

– إني أخالف زميلي عضو اللجنة في الرأي فأمامنا تقدير اللجنة المبدئي

وهو خمسمائة ألف فرنك. وإذا جاز لنا أن نرفض تظلم المالك فلا يحق لنا إلا أن نوافق على مبلغ الخمسمائة ألف فرنك.

ودارت مناقشات كثيرة بين أكثر من عضو.. هل يخفضون المبلغ إلى أقل من تقدير اللجنة الأولى أم يتركونه كما هو، ولحظ البارون جودارد أن كفة التخفيض على وشك أن تفوز. فقال مبديًا وجهة نظره في حماسة:

– أسمحوا لي يا سادة أن أدلي برأيي في هذا الأمر إننا جميعًا ملاك، فلا يجب أن نهضم حق مالك.. من منكم لا يمتلك عقارًا مبنيًا!! أننا معشر الملاك أسرة واحدة مصالحنا واحدة ويجب ألا نهضم حق واحد منا. وإذا كان الإمبراطور يريد أن يجعل باريس عاصمة الدنيا فلا يحق أن يكون أحد الملاك ضحية هذه الرغبة.

ثم أستطرد بعد أن لمس تأثير ما قاله على سامعيه:

– وإني أقترح ان أقوم مع زميلي مسيو توتين لاروش بمعاينة المنزل، وتقدير قيمة التعويض المناسب.

وانفض الإجتماع وفي ردهة المجلس البلدي حيث كان الإجتماع منعقدًا همس البارون جودارد لمسيو توتين:

– أريد أن تسدي إلي معروفًا يا صديقي.. فلدي مصلحة خاصة تقتضي أن أسافر إلى الريف الآن.. وسأعتمد عليك في معاينة المنزل.

وطمأنه توتين إلى أنه سيتوجه إلى شارع بنبيير مباشرة، ولكنه أتجه في الواقع إلى شارع دي لاروش حيت يقع منزله هو.

وفي الإجتماع التالي أقسم الإثنان أنهما عاينا المنزل سويًا. وأن المالك – أي ساكارد – كان مغاليًا في تقديره وأن المنزل لا يساوي أكثر من ستمائة ألف فرنك فقط.. بزيادة مائة ألف فرنك في تقدير اللجنة الأولى.

وهكذا أنتصر ساكارد في أولى معاركه.. وأنطلق كالذئب الجائع ينهش خزانة الدولة دون أن يستطيع أي أحد أن يشك في مشروعية ما يعمل. ومن ناحية أخرى أنطلقت رينيه تهز باريس بجمالها وأناقتها باحثة عن المتعة والتسلية بعد أن قدر لها أن تتخلص من آخر أثر يربطها بخطيئتها الأولى ذلك أنها وضعت طفلة وماتت بعد ولادتها بيومين. وأنتقلت ملكية أرض البناء التي أهدتها العمة إليزابيث بإسم الطفل إلى رينيه نهائيًا.

الفصل الثالث

ظل مكسيم مقيمًا مع جدته في بلانزا حتى صيف عام ١٨٥٤ وكان قد تجاوز الثالثة عشرة ببضعة شهور.وذات صباح أقترح ساكارد على رينيه أن يحضر الصبي ليقيم معه فمركزه المالي قد أصبح قويًا الآن ورصيده في إزدياد مستمر وأعماله ناجحة وطالما لم ينجب من رينيه أطفالًا آخرين فلا بأس من حضور أبنه مكسيم ليقيم معه وليشرف على تربيته بنفسه.

وأجابت رينيه بعدم إهتمام قائلة:

– لا مانع لدي من حضور الصبي وإقامته معنا.

ثم صمتت لحظات وأضافت قائلة:

– وأظن أني سأجد في صحبته بعض التسلية، فالفراغ يكاد يقتلني خاصة في فترات الصباح.

ولم يمض أسبوع على هذا الحديث حتى كان مكسيم في باريس بناء على إستدعاء ساكارد له، وكان أحد الخدم في إنتظاره على طوار المحطة وأصطحبه إلى المنزل.

وفي قاعة الإستقبال وقف الصبي مكسيم ذو الملامح الصبيانية الرقيقة والبشرة الملساء والوجه الذي يقارب في رقته وجه الفتيات والشعر الناعم

المائل إلى الإصفرار.. وقف يتطلع حوله في دهشة كأنه واقف في أحد المتاحف التي زارها في رحلات المدرسة أنه لم يكن يتوقع أن يجد والده يعيش في هذه الفخامة، هذه القاعة الكبيرة ذات المقاعد الوتيرة المذهبة، والثريات الكبيرة الرائعة التي تتدلى من السقف وهذه اللوحات الزيتية التي تملأ الجدران والبساط الفارسي التي تغوص فيه أقدامه.. والخدم.

أين كان من هذا كله.. والعيشة المتواضعة التي كان يحياها مع جده محصل الضرائب وجدته العجوز.

لم تكن رينيه بالمنزل ساعة وصوله، بل كانت عند صانعة ملابسها الخاصة لترى آخر ما وصل إليها من موديلات تنتقي منها أحسنها وعندما دخلت المنزل وأخبرها الخادم بوجود الصبي في غرفة الإستقبال أتجهت إليها مباشرة وهي تخلع قبعتها وتضعها على حد المقاعد وكانت مرتدية رداء من الحرير الأبيض محلى بوردة حمراء عند الصدر وعلى رأسها تحت القبعة شريط من نفس لون الرداء وعطر أنثوي أخاذ يفوح منها، فبدت كملاك جميل مثير واقتربت من مكسيم وقالت مرحبة:

- ها هو الصبي.. أليس كذلك؟

ودهشت لطوله الذي لا يتناسب مع سنه ودهش هو لجمالها وشبابها. الذي لم يكن يتوقعه.

وأعجبها شكله فراحت تداعبه قائلة:

- أنظر يا صغيري.. لن يحضر والدك قبل موعد العشاء وسأتولى إرشادك الى حجرتك.

وكان مكسيم يقف صامتًا دون أن يتكلم وأزدادت ملاطفتها له وقالت:

- أنا زوجة أبيك.. ألم تسمع عني؟

وتكلم مسيو مكسيم وقال في لهجة متقطعة:

- ولكنك صغيرة.. وجميلة.

وضحكت ضحكة مدوية وهي تقول:

- يا لك من شقي.. دعني أقبلك على وجنتك.

وقبلته ثم قالت له:

- سنكون صديقين. أليس كذلك؟ إني أود أن أكون لك بمثابة أم وصديقة في ذات الوقت. لقد فكرت في هذا. وصممت على أن أحاول أن أحسن معاملتك كما لو كنت والدتك.

وكان مكسيم ينظر إليها بإمعان وهي تتكلم وما إن سكتت حتى بوغتت بسؤاله لها:

- كم عمرك؟

وربتت على كتفه قائلة:

- لا يجب أن تسأل مثل هذه الأسئلة يا صغيري.

ثم لنفسها:

- إن المسكين لا يعرف كيف يخاطب الناس؟

ثم قالت له:

– على كل حال يمكنني أن أذكر لك سني بالضبط، وهو واحد وعشرون سنة. لكن لا تسأل أحدًا سؤالًا خاصًا كهذا مرة ثانية..

ورد الصبي:

– سوف أبلغ الرابعة عشرة بعد بضعة شهور.. وعلى هذا فأنت لا تصلحين لأن تكوني أختي لا أمي.

وكانت نظراته تدل على أنه كان يتوقع أن يجد زوجة أبيه أكبر سنًا وتعلقت عيناه بجيدها حتى أنها أحست بتيار من الخجل يسري في داخلها. وأرادت أن تتغلب على الموقف بالكلام ولكنها نسيت أنها تحادث صبيًا لم يبلغ بعد الرابعة عشرة من عمره.. فقالت:

– كنت أود أن أكون هنا في إستقبالك ولكن «ويبز» أحضرت بعض الموديلات الحديثة.

وقاطعها مكسيم في فضول وهو لا يحول نظراته عنها:

– ومن هي ويبز هذه؟

وردت رينيه قائلة:

– حائكة ملابسي الخاصة.. وهي التي صنعت لي هذا الرداء أنظر.. ما رأيك فيه؟

واستدارت لتقف أمام المرأة في إعجاب بنفسها، ثم نظرت إلى مكسيم وقالت:

– على كل حال.. أريد أن أؤكد لك أننا سنكون صديقين.. يا صغيري.

تلك كانت البداية بين رينيه ومكسيم، الذي بقي في المنزل ما يقرب من الشهر قبل أن يلحقه والده بإحدى مدارس المدينة.. وفي هذا الشهر، استطاعت رينيه أن تغسل عنه كل تصرفات الريف وسلوكه، وأن تجعل منه، كلامًا وسلوكًا، صبيًا مهندمًا لطيفًا رقيقًا، وكان مكسيم يتبع تعليماتها، وارشاداتها في شغف وطاعة.

ألتحق مكسيم بمدرسة ليسيه بونابارت أكبر وأشهر مدرسة في باريس المدرسة التي يلتحق به أبناء الطبقة الأرستقراطية، وأندمج في شلة أولاد الأغنياء وتطبع بسلوكهم وتعلم كيف يشتري السيجار الطويل الضخم المغلف بورق السلوفان، وكيف يحتسي قدح الكونياك والنبيذ الفرنسي المركز دون أن يصاب بدوار وتعلم أيضًا أن يركب عربة صغيرة يجرها جواد أشتراها له والده فيقود بنفسه العربة جيئة وذهابًا بين المنزل والمدرسة، بينما يجلس الخادم ،– سائق العربة على المقعد الخلفي وعلى رجليه حقيبة الكتب الخاصة بالسيد مكسيم!! وقد يدعو في أثناء إنصراف المدرسة بعض رفاقه للركوب معه فيدخنون السيجار الهافاني الضخم، ويلاحقون الفتيات والسيدات السائرات في الطريق بنظراتهما وتعليقاتهما الجريئة..

وكان مكسيم يبذل عناية فائقة لا لدروسه وإستذكارها، ولكن لملابسه وكيف أنه يجب أن يظهر على أنه أكثر التلاميذ أناقة وأحسنهم منظرًا.

تلك كانت تعليمات رينيه. وتلك كانت طبيعتها نفسها. فقد كانت تود أن تكون أكثر نساء باريس جمالًا ومظهرًا وأكثرهن أناقة. فلا غرو أن

لقنت مكسيم تلك الدروس المفيدة من وجهة نظرها.

وأعتاد مكسيم أن يحضر كل جلسات رينيه مع صديقاتها دون جرج من ناحيته أو دون تحرج من ناحيتهن. وكانوا – وهو موجود – لا يتحفظون في أي كلام على إعتبار أن هناك ممثلًا للجنس الآخر يستمع إليهن، فنظرتهن لم تكن تتعدى نظراتهن إلى صبي صغير. بالرغم من طوله الفاره، وأذنيه المرهفتين اللتين كانتا تلتقطان كل كلمة مكشوفة.

وبلغ مكسيم السابعة عشرة من عمره.

وظل مكسيم كما هو.. أكثر شيء يمتعه هو صحبته النساء والجلوس إليهن. وبحكم تقدمه في السن صار أكثر جرأة، ولم يجد ما يمنع أحيانًا من أن يوجه كلمة غزل الى أي من صديقات رينيه اللاتي كن يتقبلن غزله في استخفاف.. وذات يوم وبينما كانت رينيه جالسة في غرفتها تتناول شاي الصباح دخلت عليها وصيفتها ماري وهي باكية. وأستفسرت رينيه عن سبب بكائها ولكن الفتاة وكانت من الريف – المجاور لباريس – أرتبكت ولم تحر جوابًا، وألحت عليها رينيه قائلة:

– ماذا بك يا ماري.. هل أنت مريضة؟

وردت الفتاة وهي مطأطئة الرأس والدموع تتساقط من عينها:

– نعم يا سيدتي.

وقالت رينيه:

- إلزمي غرفتك وسوف أستدعي لك الطبيب.

وما إن سمعت الفتاة ذكر الطبيب حتى انفجرت باكية مما أثار دهشة رينيه وجعلها تلح في معرفة سبب البكاء.. وبصعوبة، وفي كلمات متقطعة مرتبكة قالت الفتاة:

– إنه السيد مكسيم يا سيدتي.

وظنت رينيه أن مكسيم قد وجه لها لومًا وتعنيفًا أو حتى ضربها، ولكنها كادت تصعق عندما علمت أن مكسيم قد غرر بالفتاة منذ شهرين وأن الأمر يوشك أن يفتضح.

وظلت رينيه واجمة ما يقرب من دقيقتين.. تتابعت في مخيلتها ذكريات تجربتها المريرة ولكنها لم ترث للفتاة. فقد صدأت نفسها الآن وأدى إنغماسها في الجو الأرستقراطي الفاسد المشبع برائحة الفضيحة دائمًا المليء بتقاليد الإثم والخيانة. أدى هذا إلى تبلد إحساسها فلم تعر آلام الفتاة إهتمامًا.

كل ما فعلته هو أنها نقلت الخبر إلى ساكارد الذي لم يبد أي إهتمام هو الآخر، وفقط أشار على زوجته أن تتصرف حسبما يتراءى لها مبديًا إستعداده لدفع أي تعويض للفتاة لا شفقة عليها ولكن حتى لا يلحق بمكسيم أي ضرر إذا لجأت الفتاة إلى القضاء.

وعرضت رينيه عشرة آلاف فرنك على الفتاة قائلة لها:

– يمكنك أن تشتري قطعة أرض زراعية صغيرة تعيشين فيها مع طفلك.

ووجمت الفتاة ولم تمد يدها لتتناول النقود، وظلت يد رينيه ممدودة بها،

والفتاة تحملق في ذهول.. وقالت رينيه في حدة:

– حسنًا.. إني أعرف طمع الخادمات.. أنت تريدين مبلغًا أكثر من هذا.

ولكن الفتاة ظلت تنظر إليها في ذهول دون أن تتفوه بكلمة وبعد مدة استطاعت أن تقول بأسلوب الريفية التي لم تفقد بعض قيمها نتيجة معيشتها في جو المدينة:

– هل هذا هو ثمن شرفي؟

وردت رينيه في عصبية:

– وهل أجبرك أحد على أن تفقدي شرفك؟

وقالت الفتاة في إستسلام ويأس.

– لقد خدعني.

وأجابت رينيه:

– فلتتحملي نتيجة خطئك.

وألقت الفتاة على رينيه نظرة طويلة حافلة بكل معاني السخرية والإحتقار.. واستدارت منصرفة تاركة يد رينية ممتدة وفيها النقود وخرجت الفتاة في صمت.

وفي المساء تسللت من المنزل كله، وبعد يومين أكتشفت جثة الفتاة طافية على سطح نهر السين.

لم يكن ساكارد يشغل نفسه كثيرًا بأمور مكسيم أو رينية انصراف كل

جهده إلى مصالحه الخاصة وكان يسميهما الطفلين. تاركًا لهما مطلق الحرية، يتصرفان كيفما يشاءان دون أي تدخل منه.

ولقد عانت رينيه في أول حياتها الزوجية الكثير من إنصراف زوجها عنها لأن تقاليد الطبقة المتوسطة كانت لا تزال حية في نفسها، أما وقد أنغمست في خضم المجتمع الباريسي الراقي بكل ما فيه من تحرر وإنحلال فقد تكاتفت وحدتها مع شبابها مع ثراء زوجها لترسم لها خط سير لا تقيم فيه وزنًا لساكارد الذي أتسعت أعماله وتشعبت وأصبح بيته ملتقى لرجال الأعمال أو صديقات رينيه، أو أصدقاء مكسيم حتى أن المنزل على سعته أصبح يضيق بكثرة الوافدين عليه.

لقد شق ساكارد طريقه بسرعة.. وأصبح هذا الطريق كمجرى النهر، تسير فيه أعماله بقوة الدفع الأولى. فبعد صفقة منزل شارع بنيير الناجحة التي كسب منها أربعمائة وخمسين ألف فرنك سار على نفس الدرب وأخذ يشتري المنازل القديمة التي يعلم أنها ستزال وبنفس الطرق الملتوية وبمساعدة أصدقائه الذين كثر عددهم وزاد نفوذهم، كان يحصل على تعويضات سخية من الحكومة.. بل إن بعض أعضاء المجلس البلدي نفسه وبعض الرجال ذوي النفوذ من حاشية الإمبراطور كانوا يقاسمونه الأرباح في مقابل تسهيل عمله وكيل أموال الدولة وقذفها في خزائنه التي امتلأت حتى بلغت حد التخمة وأصبح عمله هذا شبه مشروع له.. حتى أن أصدقاءه في إدارة المشروعات الخاصة بالمدينة كانوا يطلعونه على مشروعات العمران وهي مجرد فكرة، كي يستعد لها لشراء أكبر قدر من المنازل في منطقتها.

ولم يقنع ساكارد بتلك الطريقة السهلة التي لم تكن تحتاج إلى ذكاء من ناحيته، وأخذ يقدح زناد فكره بحثًا عن طرق أخرى للإثراء فأشتغل في مقاولات البناء والهدم، ذلك أنه لم يكن يكتفي ببيع المنازل للحكومة على إعتبار أنه مالكها، بل إنه توصل إلى أن يخلي المساكن من شاغليها إما بالمطالبة بزيادة الإيجار أو بالتهديد أو بالرشوة، ثم يقوم بتحرير عقود إيجار وهمية مع أشخاص وهميين حتى ترتفع نسبة التعويض التي تصرفها الحكومة للسكان وتتجه هذه المبالغ إلى خزينته بالطبع، تم كون شركة لتتولى هدم المنازل وشراء أنقاضها، وشركة أخرى لبناء المشروعات الحكومية الجديدة، وكانت الأنقاض والمخلفات الناتجة عن عملية الهدم تستغل في عملية البناء الجديد، مما يضاعف أرباحه ويزيد من رصيده الذي تكوم في أكبر بنوك فرنسا كلها.. وأصبح أسم ساكارد كالعلامة المسجلة ما من شق يبنى إلا وعليه أسمه وما من منزل يهدم إلا والمقاول يحمل أسم شركة ساكارد. وبإختصار، أصبح ساكارد من أكبر رجال الأعمال في باريس إن لم يكن أكبرهم، ولكن هذا النجاح الذي بلغه ساكارد لم يكن يقاس بالنجاح الذي توصل إليه عندما شارك مسيو توتين لاروش وكونا شركة تحت أسم كريديت فيديكول ولقد لعبت أصابع بوجين دورًا هامًا في دفع الحكومة إلى رعاية هذه الشركة وتسهيل مهامها مستغلًا نفوذه السياسي الذي أخذ يقوى على مر الأيام في مقابل أن يدخل شريكًا في الشركة دون أن يسهم في رأسمالها، ووصل حد رعاية الحكومة لها إلى درجة إغلاق إحدى الصحف التي تجرأت وانتقدت ما تقوم به من نشاط إستغلالي يضر بمصلحة المزارعين.

وكانت شركة كريديت ميديكول تعمل في تقطير النبيذ وتصديره إلى الخارج، ودأبت على إعطاء سلف لزراع الكروم مقابل فوائد جائرة وشروط قاسية خاصة بتوريد كل إنتاجهم من الكروم للشركة بالأسعار التي تحددها هي. ولحاجة الزراع دائمًا إلى المال فقد كان من السهل أن يقعوا فريسة لإستغلال الشركة التي حققت ربحًا في سنتها الأولى يعادل ضعف رأس المال الذي أستغل في تكوينها، وكلما زاد الربح زادت رغبة ساكارد المجنونة في المزيد منه.

لم تكن رينيه ساكارد مثل أي زوجه مع زوجها.. ذلك أن مشاغله ومسئولياته كانت تحول دون بقائه في المنزل معظم النهار بل وطرفًا من الليل أيضًا، ولذلك فقد كانت تضحك وتقول لمكسيم أحيانًا:

– أنا متزوجة وغير متزوجة في نفس الوقت.. هل رأيت شيئًا مثل هذا من قبل؟

وكانت تمضي أحيانًا أيامًا كثيرة، قد تبلغ أسبوعًا أو أسبوعين دون أن تراه أو يراها، ليس لأنه ينام خارج المنزل الكبير الذي انتقلوا إليه بعد أن وضع أسمه في قائمة كبار الأغنياء، ولكن لأن المواعيد التي يأتي ويخرج فيها تكون هي إما نائمة أو خارج المنزل.

فبالإضافة إلى الحرية المطلقة التي أعطاها لها. فقد فتح لها خزائنه تأخذ منها ما تريد دون أن يرد لها طلبًا. ولذا فقد أصبحت في قرارة نفسها تعتبره بنكًا لا زوجًا، وسيلة للإنفاق لا زوجًا بعتمد عليه، وبالرغم من هذا فلم تكرهه ولكنها لم تفقد إحتقارها القديم له خاصة بعد أن عرفت طباعه

وأيقنت أنه ينظر إلى الحياة كلها على أنها صفقة ناجحة. بكل ما فيها من زوجة وأولاد ومنازل ومن أكياس الإسمنت والرمل التي تستعمل في البناء.

وقد كان زواجه منها صفقة. وإستمرار هذا الزواج صفقة أخرى. ذلك أنه كان يعتبر الزوجة الجميلة متممة لثروته، بل ومساعدة له على نموها والحفاظ عليها. ولذا فلم يكن يبخل عليها بمال لتشتري الحلي، والملابس الغالية وترتاد أرقى المجتمعات تنفق عن بذخ وتدعو كبار الناس إلى حفلات تقيمها في منزلها. كل هذا من أجل مصلحته هو.. ومن أجل تحقيق أغراضه هو.. ولم يكن يسمح أبدًا لإحساس الغيرة أن يتطرق قلبه لو رأى زوجته تبتسم لهذا أو تلاطف ذاك أو تخرج لحضور إحدى الحفلات بمفردها حيث يتكالب عليها الرجال شبابهم وشيوخهم، كل يبغي إبتسامة أو كلمة أو وعدًا برقصة.

كان ساكارد الزوج.. يرى كل هذا.. ولا يحس كأي زوج عادي عندما يرى زوجته تنهشها العيون ويسيل من أجلها اللعاب. فهي ليست زوجته، بل صفقة، يجب أن يربح من ورائها. وهى كقبس النور تلتف حولها الفراشات، أو كرحيق الزهرة التي يحوم حولها النحل.

لكن.. كيف كان يستفيد ساكارد من شباب إمرأته وجمالها، وكيف كان يعوض النفقات الباهظة التي كان ينفقها عليها.

قد يأتي إليها في جناحها ذات صباح، ويطبع على جبينها قبلة باردة، ثم يقول لها:

– عزيزتي رينيه.

وتفهم رينيه أن وراء تلك القبلة طلبًا، فترسم على وجهها إبتسامة متكلفة ويتحقق توقعها عندما يقول:

– أن لدى موعدًا اليوم مع مسيو جيليار وزير البلاط بشأن عقد الشركة التي أنوى إنشاءها مع البارون جودارد وبعض المساهمين الآخرين.

وتتصنع رينيه عدم الفهم وهي ترد قائلة:

– أتمنى لك التوفيق.

ولكنه يستطرد قائلًا:

– لكن أشغالًا أخرى جدت ولن أتمكن من مقابلة الوزير. فهل تتفضلين علي يا عزيزتي بالذهاب لمقابلته نيابة عني؟

وقبل أن تنطق بكلمة إعتراض يقول لها:

– على فكرة.. لقد أمرت مسيو جارنشيا الصائغ المشهور كي يصنع لك قلادة نادرة.. لم تضع مثلها أي سيدة في باريس حول رقبتها من قبل.

وتذوب أي معارضة يمكن لرينية أن تثيرها وتذوب إعتراضات الوزير أيضًا بين ضحكات رينيه وحديثها العذب ونظراتها الساحرة وتعود لساكارد بالعقود وعليها كل التوقيعات المطلوبة.

مرضت العمة إليزابيث وأرسلت إلى رينيه تطلب رؤيتها.

وعندما وقفت عربة رينيه الفخمة التي تحمل شعار ساكارد والتي يجرها جوادان من أكرم الجياد، صهلت الخيل كأنها تعلن عن وصولها، وأسرع السائس الذي كان بجوار سائق العربة في النزول وفتح باب العربة ومد يده

ليساعد رينيه على النزول وأسرع الخدم في منزل مسيو بيرود يفتحون الباب ويرحبون بسيدتهم الغنية. وكانت رينيه كعادتها كلما زارت منزل والدها أستعدت لهذا الترحيب فأخرجت من كيس نقودها بعض القطع الفضية وأعطتها للخدم في لا مبالاة، بينما أخذت ألسنتهم تلهج شكرًا لها ودعاء.

وصعدت إلى غرفة العمة مباشرة ولم تكن كريستين موجودة بالمنزل.

وعندما فتحت باب الغرفة كانت العمة راقدة في فراشها ولم يكن مرضها شديدًا فاعتدلت جالسة وربتت على كتف أبنة أخيها في حنان بينما مالت رينيه على العمة وقبلتها.. ثم سألتها إليزابيث:

– هيه يا بنيتي.. كيف تسير بك الحياة؟

وأجابت الإجابة التقليدية المعروفة:

– حسنًا.

وعادت العمة تقول:

– لقد أصبح زوجك أغنى رجل في باريس كلها.. إنه ذكي ويستحق كل نجاح.

وأحسست رينيه أن هناك أمرًا تود العمة أن تقوله.. وإن ما فات كان مجرد مقدمة له.. ولم يخب ظنها لأن العمة ما لبثت أن قالت:

– لقد قرأت أمس صحيفة «باريس الجديدة». وفي باب أخبار المجتمع وجدت خبرًا عن الحفلة التي أقامها وزير البلاط في قصره.

وقالت رينيه معقبة:

– نعم.. لقد حضرتها.

وقالت العمة بسرعة:

– هكذا قالت الصحيفة.

ولم تكن رينيه قد قرأت تلك الصحيفة. فإن حفلاتها وسهراتها وزياراتها والوقت الذي كانت تقضيه عند الحائك إذ تصفف الشعر لم يكن يسمح لها في معظم الأحيان بأن تقرأ حتى الصحيفة اليومية ولذا فقد تهلل وجهها قليلًا عندما أخبرتها العمة أن الصحيفة قد ذكرت أنها حضرت حفلة الوزير.. وقالت في فرح:

ـ حقًا؟!

ولكن العمة لم تكن تقصد هذه النتيجة ولذلك قالت في لهجة جادة:

– ذكرت الصحيفة أيضًا أنك راقصت الوزير وآثرته برقصاتك طيلة الحفلة.

ولما لاحظت رينيه عبوس العمة صمتت.. ولكن إليزابيث أستطردت قائلة كمعلمة المدرسة التي تعدد للطفلة ما وقعت فيه من أخطاء:

– وقيل أيضًا أنكما تسللتما من بين المدعوين وجلستما في شرفة القصر بعيدًا عن ضجة الحفل وعيون المدعوين.

وكان هذا هو الاتهام الذي استدعت العمة رينيه لتوجهه محتجة بالمرض.. هكذا أحست رينيه.. ونظرت إلى عمتها مليًا.. هذه المرأة التي لم

تزل مخلصة لتقاليدها وعاداتها.. ها هي ترى مراقصة رجل غير الزوج، والجلوس معه في خلوة، حتى ولو كانت تلك الخلوة – هي شرفة... عيبًا وخروجًا عن مقتضيات الواجب. ترى ماذا كان يمكن... لو أطلعت على بقية مغامراتها.

وما هو رأيها في كل ما تعرفه عن صديقاتها وغير صديقاتها من نساء الطبقة الأرستقراطية في باريس الجديدة، باريس الإمبراطورية، التي أراد لها أن تسبق كل مدن العالم مدام هافز لها ثلاثة عشاق... فعلم بأمر أثنين منهما. المركيزة مارجريت هانو لها عشيق واحد... مسكينة!. البارونة جوليت دي سادي عشاقها أكثر من يحصى عددهم، ولكل عشيق يوم معين تلتقي به فيه ومن المظنون أن زوجها يعلم، وغيرهن وغيرهن أن الطفرة التي أنطلقت بها باريس في طريق المدنية، صاحبتها طفرة في طريق الإنحلال، قادتها الطبقة الغنية وتمرغت في أوحالها حتى صار أمرًا مشروعًا وتقليدًا جائزًا مقبولًا.

لكن.. ها هي العمة إليزابيث لا تعترف بتلك التقاليد.. إنها تعترف فقط بأن المرأة لها رجل واحد هو زوجها. الزوج فقط والعشق جريمة يقتضي الكثير من الصلاة حتى تقبل التوبة منه.. لو قبلت.

وهي – أي رينيه – هل نسيت طبقتها وحياتها القديمة. هل نسيت تربيتها في منزل مسيو بيرود الوالد الفاضل القاضي الذي أفنى عمره يقيم العدل بين الناس، هل أعمتها حياتها الجديدة عن قيمها الأخلاقية؟

في الواقع نعم.. ولم تعد تذكر إلا أنها شابة، جميلة غنية كل همها هو البحث عن المتعة وجنيها.. كيفما وبأي ثمن تكون.

وطالت نظرتها للعمة وطال الصمت بينهما.. وأخيرًا أغمضت إليزابيث عينيها وهي تقول:

– إن الحياة التي تحبينها يا ابنتي. قد تكون سهلة براقة ولكن نهايتها سوف تكون مليئة بالشوك.

ثم غمغمت في صوت تخيلت أن رينيه لا تسمعه ولكنها سمعتها تقول:

– إن تلك هي مسئوليتي.. وخطئي.. إن هذا الزواج تم عن طريقي وبإختياري.. آه لو لم يكن الله قد دفع في طريقي بمدام سيدوني..

طال اللقاء بين رينيه وبين العمة إليزابيث وتعددت موضوعات الحديث بينهما ولم تدع العمة فرصة إلا وانتهزتها لنصح رينيه بأن تحافظ على سمعتها وعلى أسمها وأخيرًا نهضت رينيه مستأذنة قائلة:

– اسمحي لي بالإنصراف الآن يا عمتي.. فلدي موعد مع الحائك.

وقالت العمة مستفسرة:

– ألن تمري على والدك في حجرة المكتب؟

وودت رينيه لو تقول لا.. لا لأنها لا تحب والدها ولكن لأنها كانت تحس أنه يحتقرها ولكنها قالت وهي تودع العمة بقبلة على جبينها:

– سأمر عليه بلا شك..

ونزلت الدرج ثم تثاقلت خطواتها وهي تتجه ناحية المكتبة، وعندما نقرت بأصابعها على الباب لتستأذن في الدخول تناهى إلى أذنها صوت والدها الهادي العميق وهو يقول:

- أدخل..

وفتحت الباب ووجدت نفسها أمام والدها الذي جلس أمام مكتب يطالع أحد الكتب الضخمة وما إن دخلت، حتى رفع رأسه في هدوء عن الكتاب، ثم قال دون أن ينم صوته عن أي إنفعال:

- كيف حالك يا رينيه؟

وأحست رينيه أن صوت والدها كوخز الإبر ينفذ إلى جسمها فيثقبه وأجابت في إقتصاب:

- حمدًا لله يا أبي.

وكان من الممكن أن تنتهي المقابلة عند هذا الحد، فلا هو لديه ما يقوله لها ولا هي لديها ما تقوله.

أحست بالحرج وهمت بأن تستأذن لتنصرف، ولكنه أشار إلى أحد المقاعد قائلًا لها:

- إجلسي..

وجلست في طاعة وأخذ قلبها يدق في سرعة غير عادية وعقلها يخمن نوع الحديث الذي سوف يدور به لسان الوالد الذي قال لها بعد لحظة:

- إن ما يصلني من أخبارك لا يسرني.

وأسقط في يد رينيه فها هي الحلقة التي حدثتها عنها العمة تشتد ضيقًا وكأنما أباها وعمتها قد أتفقا على هذه المباراة من التأنيب وأحست بأنها يجب أن تقول شيئًا فقالت بلسان متلعثم:

– إني لا أفعل ما يشين يا أبي..

ورد الأب وقد قطب عن جبينه:

– ربما كان في قولك بعض الحق. قد لا يكون سلوكك شائنًا إذا ارتبط بإسم زوجك.. ولكنه شائن بالنسبة لإسم بيرود.

وضغط على مخارج الحروف وهو ينطق بإسمه واسم العائلة زيادة في التأكيد وتلقت رينيه الصفعة اللفظية في هدوء لأنها كانت تدرك أن أباها لا يحب ساكارد ولا يقر طريقته في الإثراء، ولذلك فلم تحاول أن تدافع أو تطيل حبل النقاش بينها وبين أبيها. واستأذنت وأنصرفت وتنفست الصعداء وهي تضع قدمها داخل عربتها وأنطلقت العربة بها بعيدًا.. بعيدًا عن هذا الجو الخانق في نظرها المليء بالتحفظات، وما يجب وما لا يجب.. إلى حيث تلقي بنفسها في خضم حياة الحرية والمتعة التي ليس لها حد أو قرار.

بلغ مكسيم السادسة والعشرين وأصبح شابًا وسيمًا جميل الطلعة، رشيقًا كالفتيات وقد ورث عن والدته رقة البنية وورث عن أبيه النهم والشراهة.. مع اختلاف بسيط، لأن شراهة الوالد كانت للمال.. بينما كانت شراهة مكسيم للنساء.

وعندما ترك مدرسته وهو في سن الثامنة عشرة عاش عيشة الأغنياء العاطلين كل همه هو إرتياد الحفلات وتتبع أخبار النساء والبحث عن

المغامرات العاطفية بكل ألوانه .. حتى إنه وهو ابن العشرين كانت له في هذا المجال خبرات لا تتوافر حتى للمتقدمين في السن من الرجال.

كانت الخطيئة بالنسبة له عادة، تحلق دائمًا فوق رأسه وساعده على ذلك ضمير صدئ وقلب مندفع وعقل فارغ يركض وراء الخطيئة طالما هي بالنسبة له متعة لا يردعه رادع ولا يحده حد..

وقامت بينه وأن أبيه ألفة من نوع غريب. فعندما رأى ساكارد أن أبنه قد بلغ مبلغ الرجال لم يكن يفرق وهو يعامله بين الأبن والرجل، فكان يتحدث معه في أمور السادات في صراحة، وتشجع مكسيم من ناحية وراح يقص على أبيه أخبار مغامراته بل ومغامرات أصحابه، وكان ساكارد يسمع الحديث بإهتمام مبديًا بعض التعليقات التي تدل على أنه رغم إنصرافه إلى أعماله يجد متسعًا من الوقت للهو والعبث.

وكعادة ساكارد، لم يكن من السهل عليه أن يرى شيئًا يملكه دون أن يحاول الإستفادة منه بطريقة أو بأخرى، فالحياة عنده كما سبق أن ذكرنا صفقة تجارية يجب أن يخرج منها بأكبر قدر من الربح.

وصفقة هذه المرة كانت مكسيم!!

كان ساكارد قد تعرف على مسيو موريل وهو أحد الأغنياء الذين يملكون مصنعًا كبيرًا لتكرير السكر وعددًا من الضياع..

وكان أسم موريل الحقيقي هو بونيت، وقد نشأ فقيرًا ولكنه استطاع أن يصيب ثروة طائلة بشيء يسير من الذكاء والجهد في ذلك المجتمع الفرنسي الإمبراطوري الذي كان يأخذ من الكل ويغدق على البعض.

وعندما فكر في الزواج وقع إختياره على فتاة تصغره في السن بأعوام كثيرة من أسرة غنية وقد طمع في شبابها وثروتها وقبلت هي الزواج منه على أساس أن تقدمه في السن سيعطيها فرصة أكبر لحريتها الشخصية، وكما فعل ساكارد تمامًا عندما غير أسمه فقد غير بونيت أسمه وأستعار لنفسه أسم أسرة الزوجة، وصار يعرف بإسم موريل.

ولما جمع من المال كفايته أتجه طموحه إلى السياسة وأراد أن يكون أحد رجالها وبالرغم من أن رأسه كان كبيرًا، إلا أن عقله كان فارغًا، ومع ذلك فالسياسة في ذلك الوقت لم تكن تتطلب فكرًا عميقًا.

ولما كان بوجين شقيق ساكارد قد أصبح وزيرًا الآن، بل ووزيرًا مشهورًا له كلمة ونفوذ، فقد تخيل موريل أنه عن طريق ساكارد يستطيع أن يصل إلى يوجين الذي سيكون سندًا له في ميدان السياسة وبالطبع رحب ساكارد بهذه الفكرة لأنه وضع في الكفة الأخرى صفقة رابحة.. أشتغل فكره بها في لحظة كما تومض الشهب في الليلة المظلمة، وتكون في خياله مشروع مؤداه أن يتزوج مكسيم من لويز أبنة موريل والوريثة الوحيدة لكل أملاكه وأملاك زوجته التي توفيت منذ سنين..

ورحب مسيو موريل بالعرض، وشعر بسعادة لأنه سيصاهر أسرة أحد أعضائها وزير.. كما أن مكسيم كان شابًا ينتظره مستقبل لو درج على نهج أبيه.

ومما زاد حماسة ساكارد لهذه الزيجة تصريح مسيو موريل بأن دوطة أبنته لن تقل عن مليون فرنك، والأكثر من ذلك علمه بأن لويز مريضة بداء مزمن وأن عمرها قصير.. وإن كل مالها سيئول إلى أبنه من بعدها..

وبسرعة غريبة تلاقت رغبات جميع الأطراف، حتى مكسيم نفسه لم يمانع في إرتباطه بتلك الفتاة التي كانت من شدة التدليل تتسم تصرفاتها بالرعونة والإستهتار الذي كان يعجب مكسيم لأنه وهو أبن ساكارد كان ينظر إليها من خلال ثروتها ودوطتها الكبيرة.

وأزدادت ثروة ساكارد وأصبح نهر الذهب يجري إلى خزانته بغير إنقطاع. وإزدادت نفقاته أيضًا فقد كان ينفق في جنون يعادل جنون جريه وراء المال وأصبحت أملاك زوجته تساوي صفرًا بالمقارنة إلى ما يملكه هو، ولذا فقد أزداد خضوعها له وأنضواؤها تحت جناحه وإن لم يكن هذا يعني أنه كان ينتقد حريتها أو يحاسبها على سلوكها فقد ظلت نظرته لها كما كانت من قبل مجرد مظهر من مظاهر الثراء ولازمة من لوازم المجتمع الباريسي الراقي..

ولم يكد المسكن الذي يسكنون فيه في شارع ريفولي كافيًا لإستيعاب ضيوف الأسرة. أو مناسبًا لثراء ساكارد الفاحش.. فبنى لنفسه قصرًا منيفًا أنتقل إليه وزاد جيش الخدم الذي يعمل فيه وكثرت الحفلات التي تقام وكثر عدد العربات التي تقف على بابه..

ولكن ساكارد بالرغم من هذا كان لا يحس سعادة تضارع ما يملكه من ثروة.. فقد كان هناك إحساس داخلي بالقلق ينتابه ولا يعرف سببه أو مصدره، وكان يحاول أن يتغلب على هذا الإحساس بإغراق نفسه في العمل، أو إرتياد الحفلات وكان ينجح في هذا أحيانًا وفي أحيان أخرى كان لا يستطيع.

ومن ناحية أخرى غرقت رينيه في بحر المتعة حتى النهاية. وتوجت متعتها عندما أقام الإمبراطور حفلة في قصره بمناسبة توليه العرش وكان بوجين هو الذي وجه الدعوة للمدعوين.

وتحت إلحاح رينيه المتواصل وجه دعوة لساكارد وزوجته التي فرحت أيما فرح لأن مجتمع الإمبراطور وحفلاته كانتا الجهة الوحيدة التي لم تطأها قدم رينيه.

وأخذت تستعد للحفلة إستعدادًا خاصًا فأمرت حائك الملابس بصنع رداء خاص بالمناسبة دفعت ثمنًا له وللجواهر التي زينته خمسين ألف فرنك وطلبت من ساكارد أن يشتري لها حلية لم تلبسها أي سيدة في باريس قبلها وحقق الزوج طلبها وكان موعد الحفلة كلما أقترب زاد ارتباكها كأنها تلميذة ستؤدي إمتحانًا عسيرًا. وفي اليوم المحدد جاء مصفف الشعر وبذل عصارة فنه في تصفيف شعرها ومكثت أمام المرآة ساعات طويلة حتى صارت زينتها على أكمل وجه..

كانت القاعة الرئيسية في قصر الإمبراطور من الفخامة والسعة بحيث لم تضق بمئات المدعوين.

وكان هناك كل وجهاء باريس.. وكل أغنيائها ورجال الحكومة والسفراء والأمراء والنبلاء والسيدات الجميلات اللاتي رصعت صدورهن بالجواهر والتحفت أكتافهن بأغلى أنواع الفراء وأنبعثت منهن أزكى العطور التي أشتهرت بها باريس.

وعندما وصل ساكارد ورينية واجتازا باب القاعة، قدما بطاقة الدعوة

إلى رئيس الخدم فأنحنى إنحناءة خفيفة، ثم قرأ أسميهما بصوت مرتفع معلنًا عن قدومهما. وأتجه ساكارد إلى حيث وقف بعض رجال الأعمال الذين يعرفهم، أما رينيه التي تطلعت إليها عيون كثيرة، فقد أحست بشيء من الوحشة سرعان ما زالت عندما لمحت مدام هافز صديقتها الحميمة التي أقبلت عليها وأصطحبتها إلى ركن من القاعة، ولم يكن الإمبراطور قد قدم بعد.. وكان من المفروض أن يأتي من جناحه الخاص فيمر من الردهة المجاورة ويدخل القاعة من جهة اليسار حيث يوجد باب وقفت رينيه وصديقتها بجواره مصادفة.

وما هي إلا هنيهة حتى أعلن رئيس الخدم أن الإمبراطور في طريقه إلى القاعة، فوقف المدعوون في صفين طويلين لكي يمر الإمبراطور بينهما ويحيى ضيوفه حتى يصل إلى المقعد الذي وضع له في صدر القاعة.. وتزاحم المدعوون كل يريد أن يقف في مكان ظاهر حتى يحظى برؤية الإمبراطور أو حتى يراه الإمبراطور ويحييه.

وفتح باب الردهة ودخل الإمبراطور وإلى يمينه قائد الحرس وهو جنرال عجوز ولكنه مهيب المنظر، أما الإمبراطور نفسه فقد خابت آمال رينية عندما وقع بصرها عليه.. إذ رأت أمامها شخصًا عاديًا بدينا رأسه أضخم من منسوب جسمه وعيناه لا تستقران على حال وأنفه يغطي مساحة كبيرة من وجهه.

سار الإمبراطور بين صفي المدعوين وهو يومئ برأسه يمينًا ويسارًا تحية لمن اصطفوا حوله، ونظر أمامه فجأة فوقعت عيناه على رينيه وطالت

نظرته وهمس لجنراله العجوز قائلًا في كلمات لم يسمعها غيره:

– هنالك زهرة جميلة في حديقتنا الليلة!

وابتسم الجنرال وقال بنفس الصوت الهامس:

– مولاي خبير بالزهور!! يشم رائحتها عن بعد.

وعندما أقترب منها حياها تحية خاصة، ثم أتجه إلى مجلسه وصدحت الموسيقى وجلس المدعوون على المقاعد المتناثرة على جوانب القاعة تاركين منطقة الوسط لتكون حلبة للراقصين..

وتقدم أكثر من رجل يطلب مراقصة رينيه وكادت أن توافق على مراقصة شاب فاره الطول موفور الشباب وسيم الطلعة لولا أنها فوجئت بالجنرال يقترب منها قائلًا:

– لتسمح سيدتي بالمثول بين يدي صاحب الجلالة الإمبراطور.

وتسارعت دقات قلبها في عنف وأحست بأن قواها على وشك أن تخونها، ولكنها تمالكت وتشجعت وما هي إلا دقيقة حتى كان الإمبراطور يتحدث إليها حديثًا رقيقًا.. وحتى كانت قد أستعادت رباطة جأشها وزال عنها اضطرابها وكانت هذه الحفلة هي ذروة المجد الذي بلغته رينيه.

الفصل الرابع

متى بلغ الإنسان ذروة الشيء فإنه سرعان ما يمل ويبدأ في التطلع إلى شيء جديد. وهكذا أنحسر المد عن إحساس رينيه بالإنطلاق والتحرر والمتعة والسعادة والشباب والجمال وحياة الصخب واللهو واللامسئولية التي كانت تحياها ، وأبتدأت بذرة الملل تترعرع في نفسها وأصبحت تشعر بالقلق والوجوم والإكتئاب ولم تعد للحفلات في نظرها بريقها المعهود وأصبحت كالواجب الثقيل توديه على كره منها وبغير حماس سواء كانت داعيه أم مدعوة. والنقود التي كانت تنفقها بغير حساب أصبحت بين يديها مجرد قطع من المعدن صماء لا قيمة لها.

وألحت عليها المشكلة التي طالما عبرت عنها لمكسيم وهي أنها ملت كل شيء وتود أن تصل إلى شيء آخر يعطيها متعة مختلفة عما تعودته أما طبيعة هذا الشيء فهو ما عجزت عن تجسيده في صورة حسية ملموسة. وعندما تسللت من بين المدعوين الذين كانوا في قصرها وأتجهت إلى الحديقة وسمعت ساكارد الذي تسلل هو الآخر لا ليستنشق بعض الهواء أو ليستمتع بشيء من الهدوء.. ولكن ليبرم صفقة مع أثنين من المقاولين، عندما لم يكن يتناهى إلى سمعهما إلا قدر ضئيل من ضحكات لويز

ومكسيم وهما الآن في الشرفة يختلسان القبلات، أحست بالضيق يزداد حتى كاد يطبق على صدرها فأوغلت في الحديقة حتى بعدت عن كل مصدر للصوت وجلست على أحد المقاعد الحجرية المتناثرة في أرجاء الحديقة وركزت بصرها على السماء الصافية وتصيدت عيناها نجمًا جعلته هدفًا لها.. وأطلقت لرئتيها العنان تستنشق وتزفر الهواء البارد النقي في شراهة حتى هدأت نفسها، ولم تدر بالضبط كم من الوقت أنقضى عليها وهي في جلستها تلك إلا أنها عندما عادت إلى القصر كان معظم المدعوين قد أنصرفوا، وكان التعب قد حل بها فأستأذنت ممن بقي. وكان معظمهم رجال أعمال.. وصعدت إلى غرفتها لتنام. ولم تنعم طويلًا بالنوم، فقد ألحت عليها الأحلام المزعجة حتى أصابها الأرق.

وفي الصباح أحست بصداع قاتل ووهن في الجسم وخيل إليها أنها مريضة فأستدعت الطبيب ولزمت غرفتها طيلة يومين. وصعد مكسيم إلى جناحها أكثر من مرة ليطمئن عليها ولم يكن مكسيم يقيم في القصر وإنما كان يسكن أحد منازل والده الأخرى العديدة بل إنه لم يكن يطيل الإقامة في أي شقة أكثر من شهر ثم ينتقل إلى أخرى لا يهمه شيء، طالما خزائن والده ممتلئة ومنازله أكثر من أن تحصى وفي اليوم الثالث تحسنت صحة رينيه وعادت إلى حالتها الطبيعية وعندما صعد مكسيم ليراها كانت جالسة في غرفة الإستقبال الصغيرة الملحقة بغرفة نومها وقال لها ضاحكًا:

– آه.. أنت اليوم على خير حال. لقد قضيت ثلاثة أيام رائعة في صحبة وصيفتك..

وردت رينيه وهي تبتسم:

– إنها فتاة رائعة تجيد تدليك الجبهة حتى تزيل آلام الصداع.

وفي الأصيل. أصطحبها مكسيم في نزهة البحيرة التقليدية.

وفي صباح اليوم التالي جاءت إليها وصيفتها قائلة:

– إن سيدي يريد أن يراك الآن.

فأجابت في ضجر وضيق:

– أخبريه أني متعبة.

ولكنها تذكرت أنها أرسلت إليه بالأمس فاتورة حساب ملابس جديدة خاصة بها. وكانت قيمة الفاتوره مائة وستة وثلاثين ألف فرنك وأنه ولاشك قد دفعها ويريد أن يخبرها بذلك، ولهذا تراجعت عن موقفها وأضافت قائلة للوصيفة:

– أخبريه أيضًا إني في إنتظاره هنا.

وما هي إلا دقائق حتى كان ساكارد واقفًا بجوارها وقد جلست على أحد المقاعد أمام المدفاة، وقال لها وهو يتفحصها بإمعان:

– أرى أنك على ما يرام يا عزيزتي.

فأجابت في إقتضاب:

– نعم. ولكن أعصابي متوترة قليلًا.

ومال على كتفها ليقبلها وأحست كأن أنفاسه مسامير تخترق جسمها،

فبرغم كونه زوجها، وبرغم أنه لا يدخل أبدًا في حريتها أو حياتها الخاصة، إلا أنها كانت تحس معه بالغربة تمامًا كما لو كانت تعيش مع رجل ليس زوجًا لها. ولم تنشأ بينهما على طول السنين التي عاشوا سويًا العادات اليومية العادية التي تنشأ بين الزوج وزوجته.

أمسك ساكارد بالعود الحديدي الموضوع بجوار المدفأة والذي يستعمل في تحريك جمرات النار داخلها وكان يفعل ذلك دائمًا عندما يكون ذهنه مشغول بفكر عميق. وما يود أن يقوله لزوجته الآن كان يقتضي منه لباقة وحرصًا فائقًا.

كانت رينيه عندما وجدت أن زوجها ينفق عليها ببذخ قد فكرت في أن تعهد إليه بالسندات التي إشتراها لها بالمائة ألف فرنك المتبقية من ثمن المنزل وكذلك بالأرض الزراعية التي كانت تمثل الجزء المتبقي لها من دوطتها لبيعها وإستغلال ثمنها في أي شيء يرى بخبرته أنه يدر عليها ربحًا أكبر من السندات تسد به بعض مطالبها الكثيرة.

وبالفعل باع ساكارد الأرض والسندات وأخبرها أنه إستغل الثمن في مشروع ناجح يدر عليها قائدة سنوية كبيرة، ولم تسأله هي عن ماهية هذا المشروع ولا حتى عن إسمه لأنها كانت تدرك أنه ينفق عليها أضعاف قيمة الفائدة كل سنة، ودرج هو من ناحيته على أن يعطيها كل سنة مبلغًا من المال مدعيًا أنه قيمة الفائدة المستحقة من أموالها.

هذا هو ما ظلت رينيه مؤمنة به وما ظل ساكارد يتظاهر به أيضًا، أما الحقيقة فهي إنه باع الأرض فعلاً وكذلك السندات ووضع الثمن في

خزانته الخاصة وكان المبلغ الذي يدفعه لها على إنه ربح أو فائدة يخرج في الواقع من خزانته أيضًا. أي إنه لم يكن هنالك مشروع أو إستشمار بل أن مبلغها ذاب داخل خزائن ساكارد.

ولم يحدث هذا عن سهو أو عن خطأ أو حتى عن طمع لأن فكرة ساكارد كانت أن يقص كل أجنحة رينيه حتى يتم خضوعها له، وحتى يشعرها أنها بدونه لن تستطيع أن تحيا تلك الحياة، وفي ذلك المستوى. ولذلك فمنذ عدة شهور أخبرها وهو يتصنع الحزن أن المشروع الذي إستثمر فيه أموالها قد خسر وأفلس وأن رأس المال قد ضاع على المساهمين، وفي نفس الوقت الذي ساق إليها هذا الخبر أخرج من جيبه قلادة من الماس النادر طوق بها عنقها وهو يقول في حنين زائف

– لا تبتئسي يا عزيزتي.. فكل طلباتك أوامر سأعمل على تنفيذها.

وهكذا أصبحت رينيه لا تملك إلا هدية عمتها إليزابيث التي تنحصر في بعض قطع أراضي البناء، وكانت رينيه لا تجرؤ على التصرف فيها حتى لا تغضب عمتها أكثر مما أغضبتها.

ولم يكتف ساكارد بهذا.. بل إنه راح يعد العدة لقيد جديد يطوقها به وكان هذا هو السبب في مجيئه إلى جناحها هذا الصباح.

- أعذريني يا عزيزتي إذا ما جئت لأزيد صداع رأسك بحديث إعتبره عامًا.

وظلت عينا رينيه مشدودة إلى العود الحديدي الذي يحرك به جمرات النار في المدفأة ، وتسلل الانقباض إلى قلبها لأنها أحست أن بداية الحديث لا توحي بخير، ربما أراد أن يبلغها إنه قد دفع الفاتورة المطلوبة منها....

قالت في صوت أجوف ضعيف:

– وما هو هذا الحديث ؟

وأجاب ساكارد وهو يخرج الفاتورة من جيبه ويدقق النظر في أرقامها كأنه لم يقرأها ....

– لقد أرسلت لي هذا .... أمس.

– نعم.

وعقب ساكارد قائلاً:

– ولكن يا عزيزتي .... أخبرك إني لا أستطيع أن أدفع هذا المبلغ

وبهتت، وأضاف هو:

– إن ظروفي المالية حرجة ، لقد صدمتني عدة صدمات في سوق الأوراق المالية وأصبح المبلغ المطلوب أكبر من قدرتي.

وأصاب رينيه دوار.. إن قيمة هذه الفاتورة تعتبر دينًا عليها، فكيف تسددها إذا لم يسددها ساكارد.. وأنى لها هذا المبلغ إذا لم يدفعه هو؟

ولم تستطع أن تتكلم بل ظلت ساهمة صامتة حتى تكلم هو فقال:

– إنك تعلمين يا عزيزتي إنه لم يسبق لي أن إمتنعت عن إجابة كل مطالبك حتى قبل أن تفقدي أموالك.. ولم يسبق لي أيضًا أن ناقشت تفصيلات أي مبلغ كنت تنفقينه، ولكن مصادفة قرأت بنود هذه الفاتورة ودهشت حقًا لما تضمنته.. وكل ما يمكنني أن اقوله لك هو إنني لن

أستطيع دفع هذا المبلغ.

وقالت رينيه في اقتضاب:

- حسنًا.. أعد لي هذه الفاتورة وسأفكر في طريقة أخرى.

وأحس أن جملتها الأخيرة ستفسد عليه خطته وإنها ستنتصر عليه ولذلك قال لها:

- يخيل إلى أنك لم تصدقيني.. أنا لا أزعم يا عزيزتي أني أفلست، ولكن السوق مضطربة هذه الأيام.. وأنت تعلمين أن نفقاتنا كثيرة أنظري إلى هذا القصر الذي نعيش فيه، لقد بلغ ثمنه بما فيه من أثاث ثلاثة ملايين فرنك دفعت منها مليونًا واحدًا وما زلت مدينًا بمليونين.

فقالت رينيه في هدوء:

- إني لا أطالبك بشيء.. وأنت أقدر مني على معرفة ظروفك. وأنا أعلم أني أكلفك الكثير.

فقال ساكارد:

- ما أفظع ما تقولين يا عزيزتي.. إن كلماتك لتقطر مرارة.

وسادت بينهما لحظات من الصمت قطعتها رينيه قائلة:

- لكن.. إذا كنت تمر بضائقة مالية. فهل أستطيع أن أبيع القلادة الماسية التي أعطيتها لي منذ ستة شهور لأسدد من ثمنها قيمة الفاتورة؟

ولكن ساكارد إعترض بسرعة قائلاً:

– لا لا يا عزيزتي.. حذار أن تفعلي أو أن تظهري بدونها في الحفلة التي ستقام في الأسبوع القادم في قاعة الإحتفالات الحكومية التي سيحضرها كل الوزراء ورجال المال والسياسة.

– لو رآك أحد بدون مجوهراتك كاملة فسيعرف فورًا وضعنا المالي، مما يؤثر كثيرًا على إسمي وسمعتي.

وحاولت رينيه إقناعه ببيع بعض قطع الحلي الصغيرة ولكنه رفض ولم يكن أمام رينيه مفر من أن يتجه تفكيرها إلى هدية عمتها.. فقالت له:

– لم يبق أمامي إلا أرض البناء التي أهدتها لي عمتي.. وبالرغم من إعتزازي بها. فإنني لا أجد مناصًا من بيعها.

وإتسعت حدقتا ساكارد.. ها هو قد وصل إلى بغيته وها هي رينيه نفسها تقترح عليه ما كان يرغب في قوله. وإستطردت رينيه قائلة:

– يستطيع صديقك لارنسو أن يشتري قطعة الأرض هذه. لو قدم سعرًا معقولاً فله أملاك تجاورها وليس من مصلحته أن يشتريها غيره.

ووعدها ساكارد بأن يتصل به فوراً.

وفي اليوم التالي وفي نفس المكان الذي دارت فيه مباحثات الأمس في غرفة رينيه قال ساكارد:

– يؤسفني يا عزيزتي أن أبلغك أن ليس في إستطاعة لارنسو شراء قطعة الأرض.. ولكن..

– ولكن ماذا؟

- ولكن.. يوجد معه خمسون ألف فرنك وهو على إستعداد لأن يقرضها لك.

وقبل أن تنطق رينيه بكلمة شكر على هذا الغرض الذي لم تكن تتوقعه.. إستطرد ساكارد قائلاً وفي عينيه نظرة خبث:

- غير أن الشرط الذي وضعه للقرض يعتبر جائرًا بعض الشيء. وإن كانت الضرورة تجعل المرء يتقبل ما يعرض عليه إذا كان في ضائقة كبيرة.

فسألته رينيه:

- وما هو هذا الشرط الجائر؟

فأجاب ساكارد:

- أن تكتبي له إيصالاً بثمانين ألف فرنك تستحق الدفع بعد ستة أشهر.

وصاحت رينيه في دهشة ممزوجة بالغضب قائلة:

- إنها سرقة وليست قرضًا.

ورد ساكارد وهو يهز كتفيه:

- هذا هو كل ما إستطعت أن أصل إليه معه يا عزيزتي.

ثم أضاف قائلاً:

- ولو كنت مكانك لقبلت.

ولم يكن أمام رينيه بديلاً عن قبول هذه الخدعة التي رسمها ساكارد

ونفذها كالعادة عن طريق صديقه لارنسو وهكذا وضع في جيبه إيصال الدين وأعطاها المبلغ وهو مدرك تمامًا قيمة هذا الإيصال.

***

كانت الساعة قد بلغت السادسة مساءً عندما جلست رينيه في حجرتها وفي مكانها المفضل أمام المدفأة حزينة ساهمة تفكر في مخرج من المأزق الذي تورطت فيه عندما أعلنت وصيفتها قدوم مدام سيدوني.

وكان ساكارد قد حرم على شقيقته أن تتردد على قصره نهارًا ولكنه أجاز لها – لو أرادت – أن تحتمي في الظلام عند قدومها لزيارة رينيه، وذلك لأنه كان يدرك أن الأعمال المختلفة التي تقوم بها سيدوني وبعضها لا يشرف، ستسيء إليه حتمًا لو إرتبطت بإسمه وشاع عنها إنها شقيقته.

وعندما دخلت سيدوني بردائها وقبعتها وحذائها وجوربها التي تشترك في صفة واحدة هي السواد، لم تقابلها رينيه بترحاب كبير لأنها كانت متوترة الأعصاب وفي حالة نفسية سيئة.

وقالت سيدوني وهي تجيل النظر في الغرفة المظلمة:

– لكن يا عزيزتي.. إنك تدفنين نفسك في هذا الظلام.

وجلست على مقعد مجاور ثم قالت:

– أعصابك متعبة مرة ثانية.. لست أدري ماذا أصابك يا حبيبتي الجميلة.. فقد أصبحت في الفترة الأخيرة تأخذين الحياة مأخذ الجد.. وهذا يتلف الأعصاب حتمًا!.

وأجابت رينيه وهي تتنهد تنهده عميقة:

- إن لدي متاعب كثيرة.

وتساءلت سيدوني في خبث:

– هل هي متاعب مالية؟

وهزت رينيه رأسها ثم أطرقت ثم قالت كأنها تستجدي:

– لو تستطيعين أن تجدي شخصًا يقرضني مائة ألف فرنك.

وصاحت سيدوني في دهشة:

– مائة ألف فرنك.. هل ستشترين منزلاً يا عزيزتي؟

وردت رينيه دون أن ترفع رأسها:

– لا.. بل سأسدد فاتورة الحائك، وعدم السداد يعني إنه سيرفع الأمر إلى القضاء.

وإبتسمت سيدوني وهي تقول في صوت كفحيح الأفعى:

– من السهل العثور على من يقرض مائة ألف فرنك.. لكن.. ماذا ستعطينه أنت في مقابل ذلك؟

مدت رينيه قدمها في ضجر، فإنحسر ثوبها إلى فوق ركبتها ونظرت سيدوني إلى الجزء الذي ظهر من ساقي رينية في نهم كما لو كانت رجلاً جائعًا إلى الفتنة.. قالت سيدوني:

– يا عزيزتي رينيه.. إسمحي لي أن أقول لك أنك غير عاقلة في هذه الأيام،

إنظري إلى صديقتك المركيزة دي تولون. إنها رغم غناها تعرفت على شاب غني يغرقها بالهدايا كل يوم، وغيرها وغيرها..

وشعرت رينيه بالتقزز للمعنى الذي قصدته سيدوني. وبالرغم من أنها لم تكن ملاكًا طاهرًا طيلة حياتها إلا أنها لم تبع نفسها قط من أجل المال.. لقد إستسلمت لأنها كانت تريد الإستسلام وأخطأت لأن الخطيئة أعمتها. أما أن تعطي نفسها وهي لا تريد لأن غيرها يريد ولأنه سيدفع الثمن فإن ذلك يهبط بها إلى مصاف العاهرات.

أما سيدوني.. فلم تكن لتجد غرابة في ذلك مطلقًا..كانت إمرأة عملية ترى بعينها الإنحلال يستشري في المجتمع الباريسي فلا تجد بأسًا من أن تفيد من هذا الإنحلال، ولم تكن تفرق بين الحب وعدمه في هذه الأمور فما دامت المرأة قد أسلمت نفسها لغير زوجها فالنتيجة واحدة.

مدت سيدوني يدها في جيبها وأخرجت خطابًا مطويًا وقالت لرينيه:

- أنظري.. هذا خطاب وصلني من إحدى معارفي.. زوجة شابة تورطت في بعض الديون.. ولقد ساعدتها على سداد ديونها عن طريق أحد الشبان الموسرين الذين أعرفهم.

وقاطعتها رينيه في ضيق قائلة:

- هل تعرفين أحدًا يقرضني المبلغ؟

وأجابت سيدوني في سرعة وتأكيد:

- واحد فقط؟ قولي عشرة أو عشرين! آه لو لم يكن زوجك أخي..

لأخذت عليه أنه يغرق نفسه في العمل تاركًا زوجة شابة جميلة مثلك تجلس في الظلام وتحرق شبابها بجوار المدفأة ولكن..

وسألتها رينيه:

– ولكن ماذا؟

وأجابت سيدوني:

– ولكني أعرف أن وقته كله ليس مشحونًا بالعمل.. وأعرف أن له صديقات هو الآخر ينفق عليهن الآلاف ويضن عليك بالقليل.

وفهمت رينيه ما تعنيه سيدوني بكلامها.. إنها تريد أن تعبئها نفسيًا حتى تقبل العرض القذر الذي تعرضه عليها، بينما إستمرت سيدوني تقول في حماسة البائع الذي يريد أن يقنع عميله بوجهة نظره:

– إنك تعرفين يا عزيزتي كم أحبك.. نعم.. أحبك من كل قلبي كما أحب نفسي وأكثر.. آه..

– إنني أتكلف مشقة الحضور إلى هنا متخفية كاللصة نزولاً على إرادة ساكارد لكي أراك، لا تضحكي يا عزيزتي أو تتهميني بالجنون.. أنت جميلة رائعة وإذا كنت أنا أقول لك هذا فماذا يقوله الرجال المتيمون إذن؟!. أن لك قوامًا لم تقع عيناي على مثله وسحرًا لم أشاهد نظيره و....

وإبتسمت رينيه برغم ما هي فيه من ضجر وحزن فإن هذا المديح لم تسمعه من رجل من قبل. وها هي تسمعه من سيدوني. ولاحظت سيدوني إبتسامتها وتشجعت وألقت بكل ثقلها في الحديث قائلة:

– حسنًا يا رينيه.. إتفقنا سوف تزورينني غدًا.. هه! سنتحدث عن النقود ونبحث عن رجل شهم يقرضنا . تذكري يا عزيزتي إني أريد أن أراك سعيدة.

ولم تتحرك رينيه بل لم تنظر حتى ناحية سيدوني بل قالت في هدوء:

– سآتي.. وسنتحدث.. لكن ليس غدًا.. سأحاول أن أعطي بيت الأزياء ما لدي من نقود.. علهم يؤجلون سداد المبلغ المتبقي.. لكن لي رجاء هو ألا تفاتحيني في هذا الأمر مرة ثانية.

وبدت الخيبة على وجه سيدوني، ففي اللحظة التي أحست أن الثمرة قد أينعت وحان قطافها إذا بأملها يتبخر.

وهمت بأن تعيد المحاولة ولكن نظرات الضيق التي بدت في عيني رينيه، ورنة الغضب التي صاحبت جملتها الأخيرة جعلتها تتراجع عن طرق هذا الموضوع مرة ثانية.

وهي كرجل الأعمال تمامًا لو خسرت في صفقة فإنها تجرب حظها في صفقة أخرى، لذلك وضعت يدها في جيبها وأخرجت قطعة من الصابون وقالت:

– لقد أتيت أصلاً لأزكي نوعًا جديدًا من الصابون.. إنه يفيد البشرة خاصة بشرة الحسناوات. جربي هذه القطعة ثم تحدثي عنها إلى صديقاتك.

ونهضت لتنصرف وما إن وصلت إلى باب الغرفة حتى عادت ثانية وهي تقول:

– وبهذه المناسبة.. هناك نوع من الأحزمة المطاطة ماركة «روج» ظهرت

حديثًا وهي تغني عن المشد وتجعل وسط المرأة يبدو رشيقًا.. إذا أردت واحدًا فأخبريني.. إنني أتناول عمولة من كل حزام يباع عن طريقي.

ثم ودعتها وإنصرفت.

وغرقت رينيه مرة أخرى في لجة التفكير.

***

قبل أن تغادر سيدوني باب القصر وقفت عربة ساكارد ونزل منها وكان مقطب الجبين تبدو عليه سمات التفكير العميق.

دعا ساكارد أخته للدخول لتتناول معه كأسًا من الشراب فلم تمانع، وفي الحق لم يكن ساكارد راغبًا في الشراب أو الجلوس مع أخته ليسمع ثرثرتها الفارغة وإنما دعاها مجاملة فقبلت الدعوة ولم يكن هناك مفر من تنفيذها.

وهرول بايتسيت خادم ساكارد الخاص إلى سيده في الصالة وتناول منه القبعة والعصا والملحفة وقال له ساكارد:

– سنجلس أنا والسيدة سيدوني في غرفة المكتبة فأحضر إلى زجاجة من الشيري وكأسين.

وجلس ساكارد صامتًا ينظر إلى أخته دون أن يتكلم وتناولت سيدونى الكأس الممتلئة التي صبها أمامها وإحتستها دفعة واحدة ثم إبتسمت في دهاء وقالت لسكارد:

– ما هذا الصمت.. ألديك متاعب أنت أيضًا؟

ولم يجب ساكارد.. إنما تناول الزجاجة وملأ كأس سيدونى التي إستطردت قائلة:

– إنك تقتل نفسك بيدك يا أخي.

ورفع ساكارد حاجبيه في دهشة وتساءل قائلاً:

– ماذا تعنين يا سيدوني؟

وردت سيدوني:

– أعني أن إنهماكك في العمل سيودي بك في النهاية.. إنك أصبحت أغنى رجل في باريس كلها فهلا هدأت نفسك قليلاً.

– وماذا أفعل يا ترى عندما تهدأ نفسي؟

وكانت هذه هي اللحظة التي إنتظرتها سيدوني فقالت وعلى شفتيها إبتسامة ذات معنى:

– تنسى العمل قليلاً لتتمتع بالحياة. أن الحياة تمر بك كأنها وردية عمل وأنت بحاجة إلى شيء من الراحة وإلى الكثير من المتعة.

ثم نظرت إليه وقالت:

– قل لي.

– نعم.

– ماذا تريد من الدنيا وقد بلغت كل هذا الغنى؟

ورغم بساطة السؤال كان من الصعب على ساكارد الإجابة عليه ولم

تكن سيدوني فيلسوفة، ولا زاهدة وكان الهدف من سؤالها هو دفع أخيها إلى إلتماس المتعة في شقتها، ولكن السؤال أصاب جرحًا في نفس ساكارد كان يحاول جاهدًا أن يدمله.

ورن السؤال في أذنه كالطبل.. وماذا تريد يا ساكارد.. أجل ماذا تريد بعد ذلك، وما هي خططك المقبلة؟!

– أجل، ماذا تريد بعد ذلك، وما هي خططك المقبلة؟!

الفصل الخامس

غصت قاعة الإحتفالات الحكومية بجمهور الحاضرين حتى إنه لم يكن هناك موضع لقدم، وتوالت العربات تحمل كل وجهاء وأغنياء باريس وأصحاب النفوذ فيها وإرتدت السيدات أجمل ما إبتدعته بيوت الأزياء وتحلين بالمجوهرات الثمينة الغالية التي إمتص ثمنها من عرق الكادحين من فلاحي فرنسا وعمالها، ووقفت عربة ساكارد ونزل منها ثم مد يده ليساعد رينيه على النزول وسارا إلى القاعة وإستدارت الوجوه كلها تتطلع إلى جمال رينيه وفتنتها برغم سحابة الإكتئاب الخفيفة التي إرتسمت على وجهها والتي حاولت جاهدة أن تبددها بإبتسامة متكلفة رسمتها على شفتيها، ولكن تلك السحابة لم تفسد جمال رينيه بل زادته تألقًا تمامًا كالنقطة البيضاء على سطح أسود.. حيث تزداد تألقًا وظهورًا..

لم تكن رينيه في الواقع ترغب في حضور تلك الحفلة وأفصحت عن رغبتها تلك لساكارد معتذرة ببعض التعب ولكنه قال لها في دبلوماسية:

– إن جو الحفلة سيبدد كل تعبك يا عزيزتي.

ولكنها كررت الإعتذار وصمم هو من ناحيته على حضورها.. فقد كانت هي زينته ولا يستطيع أن يرتاد حفلة كهذه.. دون زينة.

إلتفت بوجين إلى شقيقه ساكارد وإبتسم وهو يقول له:

– إن زوجتك تزداد فتنة على مر الأيام.

ثم مد يده وتناول يدها ورفعها إلى شفتيه ولثمها وكانت هذه هي المرة الأولى التي يقبل بوجين يدها في حفل عام أمام جميع الوزراء وكبار الساسة وإنصرفت رينيه إلى حيث تجمعت بعض السيدات ممن تعرفهن، بينما سار ساكارد مع شقيقه بوجين ووقفا مع بعض رجال المال المشهورين.

تقدم مسيو موريل وحيا ساكارد ثم إنتحى به جانبًا وقال له:

– إليك خبرًا سعيدًا عن السيد الوزير.

ورد ساكارد:

– تعني شقيقي بوجين.

وأجاب موريل وإبتسامته تزداد إتساعًا:

– نعم.. فقد رشحه الإمبراطور ليكون وزيرًا أول في البلاط.. وإن كان هذا الترشيح لم يعلن بعد.. ولكني عرفته من مصادري الخاصة.

وكان مسيو موريل قد أصبح عضوًا في الجمعية التشريعية بناء على توصية بوجين ولم يتم ذلك الأمر بسهولة فلم يكن من طبع بوجين أن يفعل شيئًا دون أن يكون من ورائه نفع وإن كان أشد حرصًا على سمعته من ساكارد.

فعندما نقل ساكارد إلى بوجين رغبة موريل في أن يخوض غمار السياسة، شفع هذه الرغبة بهدية متواضعة عبارة عن عقد تنازل عن ضيعة الوزير.. تقديرًا من موريل لذكائه وخدماته التي لا تقدر للإمبراطورية!!

وأردف موريل قائلًا لساكارد:

– إن هذا لحري بنا أن نسرع في إعلان الخطوبة بين أطفالنا الأعزاء.

وكان يقصد «بأطفالنا الأعزاء» مكسيم ولويز..

وقال له ساكارد:

– ألا يجدر بنا أن نستطلع رأى بوجين في الخطبة قبل إعلانها؟

وأجاب موريل بسرعة:

– طبعًا.. طبعًا.. ومن ناحيتي.. فقد قررت أن تكون دوطة لويز مليونًا ونصف مليون بزيادة نصف مليون فرنك عن إتفاقنا السابق. ولعل السيد الوزير يستطيع أن يجد وظيفة مناسبة لمكسيم.. تليق به كأبن أخ وزير البلاط الأول.

وإبتسم الرجلان، وإتفقا على أن الحفلة مكان غير مناسب للكلام مع بوجين في هذا الأمر العائلي الخاص، وقررا أرجاء ذلك عدة أيام.

وكان مكسيم في هذه الأثناء يتوسط مجموعة من الفتيات وقد وقفت لويز عن يمينه وأخذوا يتضاحكون وإنطلقت من فم مكسيم التعليقات الجريئة التي كانت تصاحبها ضحكات الفتيات بينما جلست رينيه في مواجهتهن صامتة تدور عيناها في أرجاء القاعة وتتطلع إلى وجوه الحاضرين دون أن تتكلم أو حتى ترد على ملاحظات مدام هافز التي لم يسكت لسانها لحظة منذ أن حضرت رينيه.

لكزت مدام هافز رينيه لتثير إنتباهها قائلة:

– أنظري يا رينيه.. إن الرجل يكاد يلتهمك بعينه.

وإلتفتت إليها رينيه وهي تتساءل

– أي رجل..

وأجابت مدام هافز قائلة:

– مسيو موسى.. إنه يقف هناك في الركن المقابل.. ولم تتحول نظراته عنك منذ أن أتيت.

ثم تنهدت وإستطردت:

– يا لصبر العاشقين.

ولم ترتح رينيه لملاحظة مدام هافز ولا لتعليقها، بل إنها لم تنظر حتى إلى الناحية التي ذكرتها لأنها كانت زاهدة في كل شيء حتى لو كان هذا الشيء نظرات وله يصوبها ناحيتها عاشق مفتون.

صدحت الموسيقى مؤذنة بداية الرقص وسارع كل رجل إلى إختيار زميلة تراقصه وإتجه ناحية رينيه أكثر من معجب ولكنها صدتهم جميعًا بإبتسامة متكلفة معتذرة ببعض الإجهاد الذي يمنعها عن الرقص ولم تفت الفرصة مسيو موسى بالطبع فقد تقدم منها وإنحنى أمامها في أدب وقال ونظراته تكاد تخترق ثيابها:

– هل تسمح سيدتي بأن توليني شرف مراقصتها؟

وعجبت لجرأته، ولكنها قالت في هدوء وحزم:

– آسفة..

وقال في إلحاح:

– آه.. يبدو إنك وعدت غيري ممن هم أسعد حظًا مني.

ولكنها حدجته بنظرة غاضبة فقد ضايقها إلحاحه وقالت في صوت خافت ولكنه يحمل نبرات الغضب:

– لعل مسيو موسى يعذرني ،لأني متعبة ولا يمكنني أن أرقص هذه الليلة.

ولم ينقذها سوى حضور مكسيم الذي لحظ تغير لونها فجذب موسى من ذراعه وهو يقول:

– ألم أخبرك مرة أن زوجة أبي ليست على ما يرام في هذه الأيام..

وضحك موسى في سخرية وقال متهكمًا:

– إنصحها إذًا بدخول الدير.. فالحياة فيه تهدئ أعصابها.

***

قبل بيت الأزياء الذي تعامله رينيه مبلغ الخمسين ألف فرنك التي إقترضتها من لارنسو في الظاهر ومن ساكارد في الواقع كتسوية مؤقتة للفاتورة المستحقة الدفع، على أن تقوم بسداد باقي المبلغ بعد أسبوع.

ومر الأسبوع بمرور اليوم التالي للحفل وكان من المقرر أن تدفع رينيه المائة والستة عشر ألف فرنك المتبقية وإلا أحالوا الصك إلى القاضي. وهذا هو السبب في يأس رينيه في الحفل وزهدها في المرح والتسلية..

وكانت قد فاتحت زوجها قبل الحفلة بيوم بشأن قطعة الأرض المتبقية لديها والتي سبق أن عرضتها على لارنسو وطلبت منه أن يجد في البحث عن مشتر آخر ما دام لارنسو لا يملك ثمنها. وأحس ساكارد أن الوقت لم يحن بعد لكي ينهي الصفقة بالثمن الذي يريده هو، وحسب بعقليته التجارية أن الصفقة تكون أكثر ربحًا للمشتري إذا ما كرر البائع الرجاء، وإذا ما خر البائع على ركبتيه بدافع الحاجة الشديدة الملحة.. لذلك فقد إبتسم في خبث وهو يقول لزوجته التي كان إحمرار عينيها دليلاً واضحًا على الأرق الذي إنتابها:

– يؤسفني يا عزيزتي أن أخبرك بأنه ليس في الإمكان الآن بيع هذه الأرض.

وتساءلت في جزع:

– لماذا؟

ورد ساكارد قائلاً:

– لأن الحكومة أوقفت تصاريح البناء لفترة ولن يقدم أحد على شراء الأرض إلا إذا ألغت الحكومة الحظر على تصاريح البناء.

ورمى بهذه الكذبة وهو مدرك تمامًا أن أحدًا لن يسأل من ورائه إن كانت تصاريح البناء قد أوقفت بالفعل أم لا.. وظهر الإمتعاض واليأس على وجه رينيه، ولم تدر ما تقول ولم تجد منفسًا لضيقها غير دموعها بعد ما إنصرف ساكارد عنها.

وفي صباح اليوم التالى للحفلة لم تشعر برغبة في تناول الإفطار حتى

الشاي لم تشربه ونادت على وصيفتها قائلة:

- أطلبي أن يعمدوا لي العربة الصغيرة.

وتساءلت الخادمة:

- هل ستخرجين يا سيدتي؟

- نعم.

ولم تفصح عن وجهتها لأحد..

كانت قد قررت وهي راقدة في هذه الليلة متيقظة تطحنها الأفكار والهموم وشبح فضيحة السجن لعدم سداد الفاتورة مائل أمامها أن تقوم بزيارة والدها لإقتراض المبلغ منه وتخيلت أن والدها لن يرفض لها طلبًا خاصة لو شرحت له ظروفها. ولم ترد أن تخبر أحدًا بوجهتها. وعندما توقفت العربية بباب منزل مسيو بيرود، أحست برجفة كالتي يحسها من يرتكب وزرًا تم تخطو أقدامه داخل الكنيسة، ولم يقابلها الخدم كالعادة ربما لأنهم كانوا منهمكين في أعمالهم ولم يتنبهوا إلى وصولها اللهم إلا خادم عجوز فتح الباب وفغر فاه محييًا وهو ينطق بكلمات يتساقط معظمها بين الفراغات القائمة بين أسنانه الخربة وكانت آخر وأوضح جملة إلتقطتها أذني رينيه هي قوله:

- إن سيدي وسيدتي في غرفة المكتب.

كان مسيو بيرود جالسًا أمام مكتب صغير بغرفة المكتبة وقد فتح أمامه مجلدًا ضخمًا من تلك الكتب الكثيرة التي تمتلئ بها الأرفف التي

تحيط بالجدران، ذلك أن متعة مسيو بيرود منذ إعتزاله العمل كانت القراءة، حيث يقضي معظم نهاره داخل المكتبة يجالس الكتب ويصادقها، بينما جلست في ركن آخر من الغرفة العمة إليزابيث وقد أمسكت ببعض الخيوط الصوفية تحاول أن تصنع منها بزة لأخيها، وكان الصمت مطبقًا، لا يشوبه إلا صوت تقليب صفحات الكتاب أو صوت إرتطام الإبر المعدنية الطويلة التي كانت تستعملها العمة..

ودخلت رينيه.. دخلت كراهب يلج محرابًا مقدسًا ورحب بها الأب في إقتضاب وهمت العمة بأن تحتضنها وتقبلها وتصيح مهللة مرحبة. لكن نظرة صامتة من أخيها جعلتها تكتفي بالتحية فقط.

وجلست رينيه على أحد المقاعد صامتة مطرقة يجيش صدرها بالإنفعال، ويعجز لسانها عن الكلام بينما حدجها مسيو بيرود بنظرة القاضي الذي تدرب على النظر إلى المجرمين ليستشف منهم الحقيقة دون أن ينطقوا بها.

وتكلمت العمة إليزابيث محاولة أن تبدد الصمت الموحش الذي أطبق على الغرفة وقالت:

– ألم تدري يا رينيه؟

– ماذا يا عمتي؟

وأضافت العمة قائلة:

– إن أختك كريستين سوف تتزوج.

ونسيت رينيه تحفظها أمام والدها وصاحت قائلة:

– أحقًا..! متى ومن؟

وأجابت العمة:

– لقد تقدم لها إبن أحد القضاة الموسرين من أصدقاء والدك.

وتكلم الأب قائلاً:

– الذين يكسبون قوتهم بشرف..

كانت هذه العبارة تعريضًا واضحًا بزوجها لم يسع رينيه إلا السكوت عليه بينما إستمرت العمة قائلة:

– وها هي قد خرجت مع إحدى صديقاتها لتشترى بعض لوازمها.. أنت تعرفين فرحة البنت بالزواج.

وهم الوالد بأن يتكلم ولكنه على ما يبدو فضل الصمت، والنظر إليها وشعرت بالقلق وعدم الإرتياح. وأحست بالندم لأنها وضعت نفسها في هذا المأزق بمحض إختيارها.

وقالت العمة إليزابيث أخيرًا:

– كم أنت شاحبة يا عزيزتي.. هل أنت مريضة؟

وعقب الوالد في صوت هادئ كمن يلقي موعظة في يوم الأحد..

– الصحة كحساب البنك تمامًا.. إذا بددناها في إسراف نضبت سريعًا.

ونهض مسيو بيرود، وإتجه إلى النافذة وأخرج من جيبه غليونًا أشعله ثم

وضعه في فمه دون أن ينفث دخانه كأنما يكتفي بالوهم عن ممارسة التدخين، وساد الصمت مرة ثانية ولعنت رينيه في سرها الفاتورة وبيت الأزياء والفكرة التي دفعتها إلى المجيء إلى منزل أبيها لتقترض منه نقودًا تسد بها ديونها وودت لو تخرج مسرعة من الغرفة لتستنشق هواء بعيدًا عن هذا الهواء داخل أقفاص إلتزمت.. ونظرت رينيه إلى أمها ثم إلى عمتها وراعها صمتهما وهمت بأن تصرخ فيهما قائلة:

– لماذا لا تتكلمان لا تسلطا على هذا الصمت الذي يلسعني كالسعير؟

ولكنها كظمت إنفعالها ونظرت إلى والدها قائلة:

– إننا لا نراك كثيرًا يا أبي.

وقبل أن يفتح الوالد فمه ليتكلم إندفعت العمة إليزابيث قائلة بسرعة:

– أوه يا عزيزتي.. إنك تعرفين والدك، إنه نادرًا ما يغادر غرفته هذه الأيام الآحاد.. والأوقات القليلة التي يخرج فيها ليتمشى قليلاً في المتنزه القريب..

ثم صمتت برهة قبل أن تواصل كلامها:

– وهو لا يقوم بهذه النزعة إلا بعد إلحاح شديد من جانبي.. ألا ترين أن جسمه يحتاج لبعض أشعة الشمس لطول بقائه في غرفة المكتبة هذه!! لكن.. ماذا نفعل وهو يقول دائمًا أن باريس اليوم لم تعد تعجبه.

ورد مسيو بيرود وهو يهز رأسه قائلاً:

– إني أفقد نفسي في هذه المدينة يا ليز (يقصد العمة إليزابيت).

وأردفت رينيه قائلة:

- إنه لما يسعدني ويسعد زوجي أن تشرفنا بحضور إجتماعاتنا الإسبوعية يوم الثلاثاء.. من آن لآخر.. وهي فرصة لتغير فيها روتين حياتك.

وخطا مسيو بيرود خطوتين ناحيتها، ثم قال في صوت عميق كأنه آت من عالم آخر، غريب بعد عالم رينيه التي تعيش فيه:

- أشكري زوجك بالنيابة عني.

ثم أضاف قائلاً:

- إنه يبدو نشيطًا وذكيًا.. ولكني أتمنى من أجلك أنت لا من أجله هو أن يكون أسلوبه في عمله متسمًا بالشرف.

وأطرقت رينيه ولم تجب وأحست العمة إليزابيث بمدى قسوة كلام الوالد لها ولكنه كان لم يكمل حديثه ولذا فقد قال:

- إن أسلوب حياتي غير أسلوب حياة زوجك.. وقيمي تختلف عن قيمه، ولا أظن أني سأجد نفسي مرتاحًا بين جدران قصره المنيف!

وأحسست العمة مرة أخرى بوقع كلام مسيو بيرود على رينيه وأرادت أن تخفف من حدته، فقالت في لهجة حاولت أن تكون مرحة:

- ما أشد تعصبكم للسياسة يا معشر الرجال.

ثم إلتفتت إلى رينيه قائلة بنفس اللهجة:

- سأقول لك الحق.. إن والدك غاضب منك أنت وزوجك لحضور كما

حفلات الإمبراطور.. أنت تعلمين مدى تعصبه للجمهورية..

وهز مسيو بيرود كتفيه كأنه يريد أن يقول أن عدم رضاه على ساكارد.. ورينيه أعمق بكثير من مجرد حضور حفلات الإمبراطور ولكنه فضل السكوت.. وإتجه مرة ثانية ناحية النافذة وعاد الصمت يرفرف على الغرفة وتذكرت رينيه السبب من زيارتها لمنزل الأسرة، وفكرت في أن تطلب من والدها أن يقرضها مبلغ المائة ألف فرنك ولكن السؤال تجمد على لسانها وإهتاجت نفسها وبذلت جهدًا فائقًا في أن تحافظ على رباطة جأشها.

قامت رينيه في صمت وإتجهت إلى والدها وقبلته وإستأذنت منصرفة وتبعتها العمة إليزابيث لتصحبها حتى باب المنزل الخارجي.

وقبل أن يصلا إلى الباب، قالت العمة وهي تربت على كتفها في حنان

– إنك تبدين سعيدة يا بنيتي.. كم أنت أنيقة وجميلة.

وسرى في داخل رينيه طوفان من المرارة.. وهمت بأن تضع رأسها على كتف عمتها لتبكي وتبكي لعل الدموع تهدئ ما بها ولكنها لم تفعل، ربما لأنها لم ترد أن تحطم الصورة التي كونتها عمتها عنها وإكتفت بأن هزت رأسها وقالت في هدوء:

– نعم.. أنا سعيدة يا عمتي!

وإستطردت العمة قائلة:

– لكن إياك.. أن تدير السعادة رأسك، حافظى على سمعتك بقدر ما

تستطيعين ثم تنهدت وقالت:

- إني لا أتخيل موقفي لو لم تكوني سعيدة في زواجك!

وسألتها رينيه.

- لماذا؟

وأجاب العمه:

- كنت سأعتبر نفسي مسئولة عن كل نقطة تعاسة في كأس حياتك. ألا تعرفين إني أنا المسئولة عن زواجك بساكارد.

وغمغمت رينيه في صوت لا يكاد يسمع

- نعم يا عمتي. لكن إهدائي بالاً. لقد أحسنت لي الإختيار.

وقالت العمة مرة ثانية:

- إن زوجك يحبك وأظن أنه لا يضن عليك بأي شيء.. أليس كذلك؟

ولم تعد رينيه تطيق هذا الحديث.. زوجها يحبها ولا يضن عليها بأى شيء وها هي تأتي لتتحمل كل ذلك العذاب من أجل إقراض مائة ألف فرنك من زوجها بها عليها.. مدعيًا أن مركزه المالي مضطرب! وأرادت أن تنتهي من هذا الحديث بأي شكل فأسرعت خطاها حتى تصل إلى الباب في أقصر وقت.

ولكن حديث العمة إستمر يلاحقها.. إذ قالت لها:

- وكيف حال أملاكك يا عزيزتي هه.. إياك أن تتهوري وتبيعيها أو تتصرفي

فيها.. فقد ترزقين بطفل فيجد شيئًا يملكه من ناحيتك! وكانت هذه الجملة كالهراوه التي نزلت على رأس رينيه فأصابتها بما يشبه الدوار وكانت قد وصلت إلى الباب فمدت يدها إلى عمتها دون أن تنبس شفتاها بكلمة وألقت نفسها في العربة وطلبت من السائق أن ينطلق بأقصى سرعته، مبتعدًا عن المكان.

عندما باعت رينيه منزل شارع بنبيير كانت العمة بل وحتى والدها مسيو بيرود على علم بذلك ،لأن ساكارد وهو الذي إقترح هذا الإقتراح حتى تستثمر رينيه ثمنه في سندات تدر ربحًا أكثر من قيمة إيجار المنزل، ولكن أحدًا لم يعرف بأنها باعت المزرعة والسندات لتستثمرها في مشروع ناجح.

ثم تلاشى هذا الرأسمال في خزينة ساكارد عندما زعم أن المشروع قد حاقت به الخسارة.. ولهذا فعندما ذكرت العمة أملاك رينيه كانت حسنة النية تمامًا ولم تكن تدري إنها مست قلب رينيه بهذه الجملة البسيطة..

وانطلقت العربة برينيه متجهة إلى قصرها.. ولكنها لم تكن في حالة تسمح لها بالعودة إلى المنزل فأمرت السائق بأن ينطلق في طريق البحيرة آملة أن تخفف المناظر الطبيعية من توترها، ولكي تعطي نفسها فرصة أكبر للتفكير.

وكانت كلمات العمة لا تزال ترن في أذنيها. فيهتز لها كيانها.. «حتى إذا رزقت بطفل»!. يالسخرية الأمنية.. بل وإستحالتها..

وأسندت رأسها على حافة المقعد وتتابعت في مخيلتها صور من حياتها

مع زوجها منذ أن بدأ هذا الزواج.. وكيف أنها في بدء زواجها منه كانت تنفر منه لإحساسها بأنه يتزوجها عن رغبة فيها، إنما في سبيل المبلغ الذي دفعته العمة له كي يقبل أن ينسب حملها الأول له. وكيف أن طيلة أيام الحمل لم يقر بها، بل أنه إنهمك في حياته الجديدة ومشروعاته التي إستغل فيها قيمة التعويض والتي كان منزل بنبيير أول خطوة منه.. حتى إذا ما وضعت ومات الطفل.. كانت ثروته هو قد تضخمت وإنطلق كالجائع النهم الذي يجد نفسه فجأة أمام مائدة بها كل ما لذ وطاب من أنواع الطعام، وكيف أنها هي الأخرى إنطلقت في حياة جديدة حياة المرح والحفلات والحب.. والجمال والشباب.. ولم يتذكرا إنهما زوجان إلا مرات معدودات.. إستجابت له رينيه فيها على مضض. ثم سارت بهما الحياة كأنهما غريبان يعيشان في فندق وليسا زوجين يعيشان في منزلهما الخاص.. أما هو فقد إجترع عمله حتى الثمالة.. وأطاح برأسه الغنى وأما هي فقد غرقت في حياة اللهو والعبث والمرح حتى شربت الكأس مترعة. وإعتبرها هو ديكورًا متممًا لمظهره الجيد الذي لابد له من زوجة جميلة شابة تسهل له أموره. وقبلت هي هذا الوضع طالما تأخذ منه ما تريد لتنفقه على ثيابها وزينتها وأناقتها.

***

عندما عادت رينيه إلى منزلها أطلقت تنهدة عميقة وقابلها بايتسيت في الصالة وقال لها بوجهه الجامد الذي لا يعبر عن أي إنفعال:

- لقد سأل سيدي عنك.

وردت دون أن تلتفت إليه:

– أخبره بأني في جناحي

وصعدت الدرج.. وهي محملة بهموم تنوء كتفاها الجميلتان بثقلها، إستقبلتها وصيفتها وأحضرت لها قدحًا من عصير التفاح تعودت شربه في ذلك الوقت ولكنها لم ترتشف منه كثيرًا ووضعته على أحد المناضد المجاورة لفراشها وجلست على جانبه متعبة منهكة، تجول ببصرها في أرجاء الغرفة، دون أن تركز على شيء.

ترى.. ألم يكن من الأوفق أن تنتهز فرصة إنفرادها بعمتها وهي تودعها، تفاتحها في أمر المبلغ الذي تحتاج إليه؟ هل كانت تضن عليها العمة به؟ ولكنها جبنت وخرجت من غرفة والدها وهي كسيرة، ولم يخطر على بالها أن العمة ربما تكون قادرة على حل مشكلتها بعيدًا عن الأب وتعقيداته من ناحيتها.. ولقد ساعدتها عمتها من قبل، في محنتها الأولى ساعدتها من مالها الخاص بسخاء ولن تتوانى تلك السيدة ذات القلب الكبير في أن تساعدها هذه المرة أيضًا..

وبسرعة أمرت الوصيفة أن تستدعي لها العربة مرة أخرى وإنطلقت الوصيفة وهي دهشة للسرعة التي حضرت بها رينيه والسرعة التي تريد أن تخرج بها ولكن رينيه لم تكن لتلقي بالاً لدهشة أحد، بل أسرعت تقفز درجات السلم ومرت على بايتسيت وهو واقف كتمثال حجري لا يترك فيه سوى عينيه وفي لحظة كانت رينيه داخل العربة، ثم أمرت السائق بأن ينطلق إلى منزل أسرتها مرة ثانية.

وعندما توقفت العربية أمام الباب، وقبل أن تنزل لمحت خيال والدها من خلال زجاج نافذة المكتبة التي كانت تطل على الحديقة الصغيرة الموجوده في مقدمة المنزل، واقشعر بدنها، وكست الخيبة وجهها وقالت لنفسها:

– ماذا يمكن أن أقوله تبريرًا لهذه الزيارة.

وتسمرت في جلستها وإندفعت حبات غزيرة من العرق خلال مسام وجهها مسحتها بيديها ولم تدرك كم هي باردة.. وتعلقت عيناها بالنافذة، إنها لو طرقت الباب، لعلم والدها أنها هي.. ولأندهش من عودتها ولن تستطيع الإختلاء بالعمة.. وأحست أن دوارًا شديدًا يعصف بها، وتحرك لسانها وهي تأمر السائق بأن يستدير بعربته ويعود أدراجه.

***

صعدت الدرج بخطوات متثاقلة ودفعت باب غرفتها، ثم ألقت بنفسها على الفراش في وهن. وفي عصر ذلك اليوم أتى مكسيم وصعد مباشرة إلى جناحها كما تعود، وكانت رينيه جالسة في الصالون الصغير الملحق بغرفة نومها..

وسألتها:

– هيه يا زوجة أبي العزيزة.. ما بالي أراك حزينة؟

ولم تجب، وعاد يقول:

– إن خير ما يسري عنك هو نزهة البحيرة.

وحاولت أن تعتذر، ولكنه ألح.. ورغبة في التخلص من إلحاحه وفي أن تتخلص هي الأخرى من بعض الضجر الذي إستحكم بها، فقد قبلت أن تقوم معه بالنزهة التقليدية.

جلس مكسيم بجوار رينيه في العربة وقال مبتسمًا:

– أتعرفين يا رينيه.. لو لم تكوني زوجة أبي.. لكنت خير من يصلح أن أحبه.

وإعتبرت رينيه الأمر نكتة يلقها ليسرى عنها لذا قالت:

– ولويز؟

وأجاب بسرعة:

– إن خير ما في لويز هو الدوطة الكبيرة التي وصلت إلى مليون ونصف مليون فرنك حسب آخر الأنباء التي وصلتني.. والمرض الذي يبشر بأنها لن تعيش كثيرًا..

ونظرت إليه رينيه وقالت في تهكم:

– من شابه أباه..

ولكنه رد قائلاً:

– لا.. لست مثل أبي. في الكثير من الأمور وخاصة فيما يتعلق بالجمال.. وللمرة الثانية لم تدرك رينيه قصد مكسيم الطائش الأهوج الذي أصبح في مجتمع باريس مثلاً الشباب الذي لا يتمسك بأي قيمة أو مثل أعلى.

وفي طريق العودة إقترح مكسيم على رينيه أن يتوجها إلى مطعم يقع في منطقة منعزلة ليتناولا كأسًا وربما فتحت شهيتها لتناول العشاء وقال مجددًا فكرته:

- إن جلسة هادئة كفيلة بأن تنسيك ما أنت فيه من هموم.. لم لا تخشي شيئًا فمعي بضع مئات من الغرنكات تكفي لأن نتناول عشاء فاخرًا.

وكانت رينيه بالفعل في حاجة إلى أن تسري عن نفسها ولم تعارض مكسيم لأنها كرهت أن تحبس نفسها بين جدران غرفتها..

لا ترى إلا وجه وصيفتها وإنطلقت العربة إلى حيث وجه مكسيم سائقها فإنحرفت إلى طريق جانبي تحف به الأشجار من كل جانب وتفوح منه رائحة الخضر التي كانت تبللها قطرات من الرذاذ الخفيف، وفي آخر الطريق كانت هناك حانة يملكها رجل صيني عجوز أستوطن باريس وإفتتح هذه الحانة التي إشتهرت بتقديم الأطعمة الصينية والمشروبات الشرقية والخمور المعتقة ذات الشهرة الخاصة. وكان يعاون الرجل العجوز إبنته التي كانت تقوم بإعداد الطعام بنفسها وخادم فرنسي يسهر على خدمة العملاء.

وكان رواد الحانة من نوع خاص.. ممن يبغي جلسة هادئة في ظل إطار شرقي خلاب يلهب مشاعر المحبين ويضفي جوًا شاعريًا أشبه بليالي ماركو بولو في الصين.

وكانت الحانة مكونة من صالة متسعة بعض الشيء، رصت بها بضع الموائد، وزينت جدرانها ببعض الرسومات الصينية بينما يتدلى من السقف

مصباح يشع ضوءًا برتقاليًا خافتًا، حتى أن الجالس إلى إحدى الموائد لا يستطيع أن يتحقق من شخصية الجالس على المنضدة المجاورة لعدم كفاية الضوء.. وكان من تقاليد الحانة أن الحديث يدور همسًا حتى لا يزعج أحد الآخر وحتى يحتفظ المكان بشاعريته وهدوئه.

ولم تكن تلك الصالة هي المكان الوحيد الذي يستقبل الرواد بل كانت هناك غرفة صغيرة في الطابق الأعلى يصل إليها عن طريق سلم خشبي صغير، وكانت تلك الغرفة أشبه بالخلوة، لا توجد بها سوى مائدة واحدة بجوارها مقعدان وكنبة متسعة بعض الشيء تكفي لأن ينام عليها من يريد.

ولم يكن الرجل الصيني صاحب الحانة ليسمح لكل عملائه بإستعمال هذه الغرفة بل كان يخص بها عملاءه المقربين.. وفي مقابل مضاعفة ثمن المشروبات أو المأكولات.

توقفت العربة أمام الحانة ونزل مكسيم ثم ساعد رينيه على النزول وإستقبلهما صاحب الحانة مرحبًا وإبتسم إبتسامة ودودة، فهمت رينيه منها على أنه كثير التردد على المكان وقال العجوز لمكسيم:

– هالو يا سيد مكسيم. إنك تشرف الحانة بحضورك.

ورد مكسيم قائلاً:

– كيف حالك يا صن يان.. وكيف حال العمل؟

وهز الرجل رأسه كأنه يريد أن يقول «عال» ثم قال:

– لكن عدد الرواد قل في هذه الأيام. ولا أدري ماذا جرى للناس..

يبعدون عن الأماكن الشاعرية الجميلة وأصبحوا يفضلون عليها المقاهي الحديثة المزدحمة.

وربت مكسيم على كتفه قائلاً:

– ليس كل الرواد من يفضل ذلك يا صن يان.. أرسل مشروبًا لسائق العربية.. وإن كان عندك بعض الشطائر فأرسل له بعضًا منها، لكن لا تكثر.. له حتى لا ينام من التخمة.. وحتى لا تغالطني أنت في الحساب.

إبتسم الرجل في أدب جم.. وسار أمام مكسيم ورينيه التي ظلت صامتة مستوحشة المكان الذي لم تكن قد رأته من قبل، وعجبت كيف عرف مكسيم طريقه وألفه، ومرا على إبنة العجوز فحياها مكسيم بقرصة في ذراعها ضحكت لها بدون صوت، ثم إلتفت صن يان إلى مكسيم وقال له همسًا:

– هل تحب أن تجلس في الصالة.. أم..

ورد مكسيم وهو يغمز بعينه:

– لا.. أريد مكانا أكثر هدوءًا..

وإبتسم الرجل وهو يقول:

– هكذا أنت دائمًا يا سيد مكسيم.. تحب الهدوء.

لم تفهم رينيه ما يعنيه مكسيم بالمكان الأكثر هدوءًا، وظنت أنه يريد مائدة منعزلة ولكنها وجدت نفسها أمام السلم الخشبى ومكسيم يدفعها في لطف كي تصعد قائلاً:

–إصعدي .. سنقضي وقتًا ينسيك كل همومك يا زوجة أبي العزيزة..

وأحست رينيه بدقة عميقة في قلبها، دقة واحدة كتلك التي تحدث لا إراديًا عندما يستشعر باطن الإنسان بالخطر.

قالت لمكسيم محاولة أن تتراجع:

– من المستحسن أن نجلس هنا حتى لا ننسى الوقت..

ولكنه كان مصممًا، ولم ترد أن تظهر أمام الصيني العجوز بما قد يفهم منه أي شيء فتصنعت ضحكة مفتعلة وقالت:

– لعمري.. يجب أن تصطحب والدك إلى هنا، حتى تنسيه سيرة المال والربح ولو للحظات!.

وتعمدت أن تضغط على كلمة والدك، حتى تصل إلى أذني صن بات وحتى يفهم العلاقة التي بينها وبين مكسيم.

عندما إحتوتهما الغرفة الصغيرة، جلس كل على مقعد ولاحظت رينيه وجود الكنبة قالت باسمة:

– يبدو أن بعض رواد هذه الحجرة يغالبهم النعاس كثيرًا.

ورد مكسيم قائلاً:

–نعم.. وصن بات يجيد تأثيث الغرفة بكل ما يلزم الرواد.

كان باب الغرفة مفتوحًا، وبعد أن جلس مكسيم ورينيه عدة دقائق، أتى النادل ولحظت رينيه أنه أخذ يحك بأقدامه على السلم كأنما يعلن عن

قدومه. ثم طرق الباب طرقات خفيفة، حتى إذا ما قال له مكسيم «تفضل» دخل، وانحني أمامهما في أدب وقال:

– ماذا يطلب سيدي وسيدتي؟

وحياه مكسيم كأحد معارفه وقال له:

– هيه يا رودلف.. ألا زلت غاضبًا من زوجتك؟

هز النادل رأسه وهو يقول:

– وسأظل غاضبًا منها مدى الحياة..

وتساءلت رينيه:

– وأي ذنب إقترفت المسكينة حتى تغضب منها هكذا..

ورد مكسيم وهو يضحك في هزء

– لا شيء.. سوى أنه وجد عندها أحد أصدقائها.

وأعقب قوله بضحكة وعناء، أحسست رينيه أنها آلمت النادل وأذت مشاعره وهمت بأن تلفت نظر مكسيم ولكنه قطع ضحكته وقال:

– أحضر لي زجاجة من البراندى المعتق.. زجاجة كبيرة..

وإلتفت إلى رينيه وسألها:

– وأنت ماذا تشربين؟

وردت رينيه:

-كوب من عصير التفاح.

وجلجلت ضحكة مكسيم مرة ثانية وشعرت رينيه بالحرج إذ ظنت أن سلوكًا مضحكًا صدر منها ولكنه قال وهو يغالب ضحكه:

- عصير تفاح.. عند صن يان!!، أحضر لها كأسًا فارغًا وستشاركني في شرب البراندي يا ردولف.

إنحنى النادل في أدب، وأستدار لينصرف ولحظت رينيه أنه أغلق الباب في أثناء إنصرافه.

قضى الإثنان الوقت ما بين إنصراف النادل وحضوره ثانية بزجاجة البراندى والكأسين يتحدثان حديثًا متفرقًا عن موضوعات شتى بعضها عن ساكارد وبعضها من لورا التي يقال إنها من صاحبات ساكارد وبعضها عن مكسيم والبعض الآخر عن لويز ومشروعات مكسيم بعد الزواج منها.

قال مكسيم :

- إني أنوي أن أسافر معها في رحلة طويلة حول العالم.

وإبتسمت رينيه وهي تقول:

- إن هذه الرحلة كفيلة بأن تستنزف منك نصف قيمة الدوطة تقريبًا.

ولكن مكسيم قال:

- أتظنين أن الرحلة ستكون على نفقتي؟ أبداً! بل سأجعلها تلح على والدها كي يتحمل هو كل النفقات وحتى تظل الدوطة سليمة لمشروعاتي.

وتساءلت رينيه:

– وما هي مشروعاتك؟

وبسرعة أجاب مكسيم:

– الهدم والبناء.

وبدون أن تشعر قالت رينيه للمرة الثانية في ذلك المساء:

– من شابه أباه.

أحضر رودلف البراندى وإنصرف وأغلق الباب بعد أن وضعه أمام مكسيم، الذي ملأ كأسا رينيه ثم ملأ كأسه، وشربه دفعة واحدة، ثم ملأه مرة ثانية وثالثة شربها في لحظات بين دهشة رينيه وإستنكارها، وقالت له:

– إنك ستثمل يا مكسيم.

غير إنه قهقه ضاحكًا وهو يقول:

– وما المانع.. إشربى.. إشربي حتى تنسي همومك الوهمية التي تفسدين بها وقتك هذه الأيام.

ولم يكن لدى رينيه رغبة في الشرب، بينما ظل مكسيم يملأ كأسه ويفرغها في جوفه حتى بدأ توازنه يختل وأصبح يخرج الكلمات ممطوطة وبدون معني أحيانًا، وأحسست رينيه بالسخط ولامت نفسها على أنها طاوعته وحضرت معه، وتنمر داخلها كالقطة التي تستشعر الخطر وتستعد له، ثم أرادت أن تنهي هذا الموقف فقالت له:

– لننصرف الآن يا مكسيم، فإني متعبة وأود أن أنام.

ولكنه مال برأسه ناحيتها وهو يرشف آخر كأس في الزجاجة وقال:

– ماذا تقولين؟. إننا لم نكد نجلس يا عزيزتي.. ولم نتناول الطعام بعد.

وأجابت في شبه توسل:

– ليست لي رغبة في الطعام.. هيا.. ربما نأتي في وقتًا آخر.

ونهضت، ولكنه أمسك يدها في إلحاح. وأحست برعشة عندما لامست يده يدها.

وحاولت التملص من يده، ولكنها لم تشعر إلا وهو يحاول أن يقبلها وأنفاسه تضطرب كحيوان يجر حملاً ثقيلاً ورائحة الخمر تفوح كريهة من فمه والرغبة الجائعة تطل من عينيه، وتيقظت في نفسها غريزة الدفاع عن النفس وإستجمعت كل قواها وراحت تقاومه في إستماتة، بينما هو يهذي بكلمات غير مفهومة فيها كلمة حب، وكلمة تهديد، وكلمة وعيد، ولكنها تمكنت في النهاية من أن تتخلص من بين يديه، ونهضت قائمة ونهض هو يحاول أن يعيد الكرة، ولكنها رفعت يدها وبكل ما تملك، وبدون حتى أن تشعر، هوت بكفها على وجهه في صفعة دوى صوتها، فذهل ووقف أمامها كالمشدوه.

وقبل أن تفيق من المفاجأة، فتح رودلف الباب ونظر إليها في دهشة صامتة عدة لحظات وكأنما أفاقت الصفعة ودخول رودلف مكسيم، فتنبه إلى غرابة الموقف وإلى مغبة ما فعل، وهم بأن يتحدث، ولكن رينيه

أسرعت لتتخلص من هذا الموقف، ولتنتهز فرصة وجود النادل وقالت:

– سننصرف الآن.

وإتجهت ناحية الباب وتبعها مكسيم في صمت ذليل، ونزلت السلم في سرعة وإرتباك. وفي لحظات، كانت قد ألقت بنفسها على المقعد داخل العربة، وجلس مكسيم بجوارها صامتاً، وألهب السائق ظهر الجياد يحثها على المسير.

ولم يتكلم مكسيم، ولم تتكلم رينيه، بل ظلا صامتين طول الطريق وكلاهما يتحاشى مجرد النظر إلى الآخر إلى أن وصلت العربة إلى القصر.

عندما دخلت رينيه غرفتها، أحست إنها وصلت إلى مكان آمن بعيد عن مشارف الخطر الذي كان محدقًا بها، وأرادت أن تخلو إلى نفسها، فصرفت الوصيفة، ولما أحسست أنها أصبحت بمفردها ألقت نفسها على الفراش، وأطلقت لدموعها العنان: وبكت كما لم تبك من قبل، بكت في حرقة وفي لوعة وفي أسى، وفي ندم.

وكلما تذكرت الموقف الأخير الذي مر بها أحسست بأن أمعاءها تغور وتكاد تخرج من حلقها.

هي المخطئة.. هي الجانية.. هي التي تسببت في هذا الموقف.. هكذا فكرت وهكذا أحست وهكذا صارت تؤنب نفسها. إنها لم تعامله أبدًا على إنها زوجة أب، منذ اليوم الذي أتى فيه ليقيم معهم عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره، كانت صبية في العشرين، وحيدة، ففرحت بأن يأتي صبي آخر.. يصغرها سنًا ليقيم معها. وعاملته بدون كلفة وإندمجت معه في مرح

الصبا ولهو الشباب وصارت تعامله كصديق. نعم كصديق.. إما أن تبلغ المسألة هذا الحد..

– يا إلهي.

وأخذت تبكي حتى غلبها النعاس.

***

إستيقظت من إغفائها على صوت أقدام وصيفتها وهي تقترب منها فقامت مذعورة وكانت لا تزال بملابس الخروج وسألتها عن الساعة فقالت الوصيفة إنها بلغت السابعة وإنه لم يبق على موعد العشاء إلا نصف ساعة.

قامت رينيه وهي تجر رجليها في صعوبة لتغير ملابسها ولترتدي ملابس العشاء وإن كانت لا تستشعر بأى رغبة له، ولكنها خشيت أن يؤول تغيبها عن العشاء بأي تفسير.. ووقفت أمام المرآة، وأستسلمت للوصيفة وهي تفك لها أزرار الرداء التي كانت ترتديه، ثم خلعته ووقفت أمام المرأة بالقميص الذي كشف عن كتفيها ونحرها وأعلى صدرها وجزء كبير من ساقيها، فبدت كتمثال إغريقي لألهة الجمال، ولم يزدها حزنها إلا جمالاً.

في هذه اللحظة سمعت رينيه طرقًا على الباب وهتفت في هلع:

– من بالباب؟

وجاء صوت ساكارد من الناحية الأخرى للباب قائلاً:

– أنا يا عزيزتي.. هلا سمحت لي بالدخول؟

أسرعت تقول في إرتباك:

– لحظة من فضلك.

وبسرعة طلبت من الوصيفة أن تحضر لها أي رداء لترتديه فوق قميصها الداخلي. وبالرغم من أن القادم كان زوجها إلا أنها تعودت أن تنظر إليه على أنه رجل غريب.

أحضرت الوصيفة رداء من دولاب الملابس وناولته لسيدتها التي إرتدته بسرعة وكان رداء برتقاليًا أكتافه عارية، وفي الواقع أن الوصيفة في غمرة عجلتها لم تدقق في إنتقاء رداء معين، بل أحضرت أقربها إلى يدها، وبدت رينيه وهي تقف أمام المرآة تعدل من أحكام الرداء على جسمها، كأنها قطعة من النور لا يمت إلى الآدميين بصلة.

فتحت الوصيفة الباب ودخل ساكارد ثم حيا زوجته في رقة متكلفة وصرف الوصيفة حتى يخلو الجو للحديث مع رينيه التي جلست على المقعد أمام المرآة، وظل هو واقفًا بجوارها يصوب إليها نظرات خاطفة حتى لا تلحظها هي.. ثم قال لها:

– لقد كنت أود أن أراك في الصباح.. ولكن يابتست أخبرني إنك أتيت ثم خرجت مرة ثانية.. أرجو يا عزيزتي أن لا تكوني مشغولة بشيء يعكر صفو مزاجك.

وفي الحق كان مزاجها منقلبًا إنقلابًا كليًا، ولكنها لم تجب. ووضع يده على كتفها العاري وهو يقول كلمة (عزيزتي) وأحست أن أصابعه تشبه أسياخ الحديد المكوي التي تنغرس في جسمها وسرت في داخلها قشعريرة باردة أما هو فقد حدث لديه عكس ما حدث لرينيه. ذلك أن مسا من

النار سري في أصابعه، وتغلغل في أعماقه وإهتز كل كيانه وتأججت نيران الرغبة في داخله، وود لو يطوق رينيه بذراعيه. ود لو ينتقم في لحظة من حرمان سنوات طويلة، وود لو يعصر ذلك الجمال الذي حرمه على نفسه لأنه يتأبى عليه. ود ذلك كله.. ولكنه تراجع وكبت مشاعره ووأد رغبته ورفع يده من فوق كتفها وتنفس ليخرج زفيرًا خارقًا، وتنهدت هي كالفأر الذي تخلص من براثن صائده، وقال لها:

– آه .. لقد كدت أنسى السبب الذي من أجله صعدت إلى هنا..

وتساءلت:

– وما هو؟

ورد ساكارد:

– خيل إلي إنك لا زلت في حاجة إلى بعض النقود.

وإلتمعت عيناه ببريق المساومة وهو يضيف قائلاً:

– وفي إمكاني أن أعطيك خمسين ألف فرنك.. بدون إيصال أو حتى مائة ألف.. هه؟ بدون إيصال لو أردت.. فسأحضرها لك بعد العشاء.. هنا.

وفهمت الثمن الذي يجب أن تدفعه.. وأدركت أنها يجب أن تسلم نفسها له في مقابل هذا المبلغ، وثار كبرياؤها.. حتى غطت عن حاجتها للمال قالت:

– أشكرك يا عزيزي.. ولكني سأفكر في الموضوع وسأخبرك إذا كنت في حاجة للنقود.

وإبتسم وفهم إنها أدركت.. وأنها رفضت، فمال عليها وقبلها نفس القبلة التقليدية الباردة الرسمية وقال:

– أنا تحت أمرك دائمًا يا عزيزتي.

ثم إستدار وإنصرف.

لم تنتظر رينيه حتى تتناول طعام العشاء، بل غيرت ملابسها وهبطت الدرج بسرعة، وقابلها بابتست كالعادة جامداً صامتًا، فطلبت منه في سرعة وحزم إخطار سائق العربة بالحضور إلى باب القصر ووقفت في قلق تنظر عودته ليعلن وصول العربة.

بعد إنصراف ساكارد من غرفتها أحسست بريح عاصفة تكاد تقتلعها ويقدف بها إلى أتون العذاب. لقد إستعصت عليها مشكلة بسيطة كتلك، وعز عليها أن تجد من يقرضها مائة ألف فرنك تسدد به دينًا ملحًا.

وخطر لها أن تلجأ إلى سيدوني.. إنها أملها الأخير. فقصدتها على الفور، وتحدثت إليها في صراحة. وضحكت سيدوني ضحكة طويلة منغمة، بالرغم من أن الموقف – من وجهة نظر رينيه على الأقل – لم يكن يحتمل ضحكًا.

وقالت، وهي تنتقل بمقعدها وتقترب أكثر من رينيه، وتقبلها قبلة نفرت منها رينيه، وقالت في صوت خافت أشبه بفحيح الأفعى:

– طلبك معد يا عزيزتي.. وحظك من السماء.. فقد طرق بابي قبل وصولك بدقائق رجل نبيل جاء لزيارتي. وأعتقد إنه لن يمانع في إقراضك هذا المبلغ وأكثر منه وبدون ضمان.

ثم صمتت لترى وقع كلامها على رينيه وإستطردت قائلة بعد لحظات:

– إنه موجود في الحجرة الأخرى.. وأنت تعرفينه.

ودق قلب رينيه وهي تتساءل:

– أعرفه؟

وردت سيدوني:

– نعم يا عزيزتي.. ألا تعرفين مسيو موسى؟

وأحست رينيه أن بركانًا قد إنفجر في أعماقها فزلزلها.. ماذا يريد بها القدر؟

وقبل أن تهم رينيه معترضة كانت سيدوني قد نهضت وسارت إلى الغرفة المجاورة وهي تقول:

– دقيقة واحدة يا عزيزتي.

وإختفت داخل الغرفة لحظات، وسمعت رينيه الهمس يدور مرة ثانية وكانت حالة من الشلل قد سيطرت على تفكيرها، فلم تعرف كيف تتصرف، وقبل أن تستجمع أفكارها، كانت سيدونى قد ظهرت على باب الحجرة وخلفها موسى، وهبت رينيه واقفة، كالطائر الذي يرى الصياد فيبسط جناحيه إستعداد للهرب. بينما قالت سيدوني:

– أظن إنكما لستما في حاجة إلى من يقدمكما.. وأعذراني فلدي بعض المشاغل في الحجرة الأخرى سأقوم بها الآن.

وإنسحبت بسرعة.. وأغلقت دونها الباب..

إقترب موسى من رينيه، وعلى فمه إبتسامة الذئب الذي وقعت الفريسة بين يديه بعد طول مطاردته لها ولحظ توترها وإن كانت واقفة صامته دون أن تظهر على وجهها أي تغير وقال:

– أخيرًا يا سيدتي.. يسعدني الحظ بأن أتمتع بمشاهدتك دون رقيب.

ولم ترد وإستطرد الرجل قائلاً:

– أمن أجل مائة ألف فرنك يعتري الحزن آلهة الجمال!

وقالت محاولة أن تبدو جادة في كلامها:

– لو أقرضتها لي أكون شاكرة وسأكتب لك صكًا بالمبلغ.

وإزداد إقترابه منها وهو يقول:

– إن الصك الذي أريده هو رضاك.

– إن كل ما أملك أضعه تحت قدميك الجميلتين با معبودتي..

وصرخت فيه بكل قواها:

– إليك عني.. أيها الوغد فإنني لست للبيع!

ودهش ودخلت سيدوني على صوت صراخها وحاولت أن تهدئها قائلة:

– ماذا جرى يا عزيزتي؟

ولكن رينيه إلتفت ناحيتها وقالت في مرارة وإحتقار:

– لأهون على أن أبيع نفسي لزوجي، خير من أن أنزل إلى درك العاهرات.

وإنطلقت خارجة، وبعد لحظات كانت جالسة داخل العربة وصدرها يعلو ويهبط في عنف وقلبها يوشك أن يقفز من بين ضلوعها.

***

أعطاها ساكارد المائة ألف فرنك، بعد أن قبض الثمن من جسدها ومن صك بيع قطعة الأرض التي وقعته له.

أخيرًا أصبح لديها مائة ألف فرنك ولكن بأي ثمن.. وبأي نتيجة.. لقد أصبح في إمكانها أن تسدد دينها لبيت الأزياء. بلا قضية ولا فضيحة، ولكن من يستطيع أن يسدد مالها هي من ديون!

وأوقدت شمعة وحملتها وسارت إلى أن وقفت أمام المرآة.. فتطلعت إلى وجهها وراعها شحوبة.. وما به من صفرة تشبه صفرة الموتى، وتحسست خدودها بأصابعها الباردة المرتجفة وخيل إليها إنها ترى بعض التجاعيد، وإن هذه التجاعيد تتزايد وتتزايد وتعمق حتى تملأ كل وجهها وذعرت أكثر مما هي مذعورة وتطلعت إلى عينيها وخيل إليها أنها تجحظ وتتسع حتى لتملأ كل وجهها وذعرت وصرخت وإرتدت عن المرآة.. ثم عادت ثانية ونظرت إلى كتفها الذي إنسدل عنه رداءها وخيل إليها أن نارًا قد أمسكت بهذا اللحم الذي كثيرًا ما فتن وكثيرًا ما أغري.. وإن النار تمتد إلى كل جزء من جسدها حتى صارت كتلة من الفحم.. وصرحت مرة ثانية وإرتدت عن المرآة.

ألقت بنفسها على الفراش.. وهي تكاد تقارب الجنون.. ما بالها.. ماذا جرى لها.. ومن المسئول عن حالتها تلك؟

ونظرت حولها.. إنطفأت الشمعة وغرقت الحجرة في الظلام وإخترقت الجدران جحافل الأشباح.. والمردة، كل يمسك سيخًا محميا موجهًا إلى جسدها، وقبل أن تصل إليها الأشباح، ينفرج سقف الحجرة عن ملاك.. لا تلبث الأشباح أن تختفي عندما تراه.. ويحوم الملاك حولها.. وتسمع، أو يخيل إليها إنها تسمع أغنية طالما كانت ترددها هي وصديقاتها في درس الموسيقى أيام المدرسة، أغنية تقول كلماتها: (يا أبانا.. إننا لن نخطئ أبدًا.. فكفي ما لاقيته من أجلنا من عذاب..) هو ويعلو صوت الأغنية شيئًا فشيئا، حتى ليصبح كهدير الموج في يوم عاصف. وتعلو كلمات.. لن نخطئ أبدًا.. لن نخطئ أبدًا.. لن نخطئ أبدًا.

ولكنها أخطأت.. أخطأت حتى إرتفعت خطاياها على كتفيها إلى عنان السماء..

غرقت في متع الدنيا ولهوها لا يحدها حد ولا يردعها رادع.. شباب وجمال ومال وحرية.. وزرِح لاه عنها.. فماذا كانت تصنع غير ما صنعت؟!

ومن عجب أن زوجها لم يقتلها وهو يرى مبلغ عبثها وإستهتارها.. لكن كيف يقتلها كيف يورط نفسه في أمر مثل هذا كفيل بأن يلقي به في السجن، إن لم يكن الإعدام.. ويبعد نفسه عن دنياه، دنيا المال والذهب والصفقات المريبة وغير المريبة.. إنه لم يخلق ليكون زوجًا.. بل خلق ليكون جامع ذهب، هذه هي كل متعته في الدنيا.. وهي لم تكن بالنسبة له إلا قطعة من الذهب، مخزونة في خزانته قد يتمتع بالتطلع إليها ثم يعيدها إلى مكانها.. فلماذا لم يقتلها؟

وأحست أن ملابسها تنزاح من فوق جسمها وأنها أصبحت عارية

وصارت تتحسس كل جزء من جسمها.. هذا الجسد ما باله قد خمدت فيه حتى حيوية الحياة نفسها بعد أن كان لهيبه يصيب الناس بالدوار! إن الكل يتطلع إلى هذا الجسد الكل يريده رغبة فيه.. وهو أي الجسد أصبح مجرد صحيفة مفرودة عليها بصمات الخطايا.

وعادت الأغنية تعلو في ذهنها: إننا لن نخطئ أبدًا.

وعادت تمر بذاكرتها مخترقة حياتها منذ أن كانت طفلة صغيرة تلهو في براءة الملائكة إلى أن أصبحت امرأة خاطئة مستهترة!! أي حياة تلك وما هي نهايتها! لقد ذاقت كل متع الدنيا.. فهل شبعت؟ أبدًا.. بل كلما مرت بها متعة طلبت المزيد.. طريق طويل بلا نهاية.. إلا أن يسقط المرء مغشيًا عليه وهو يجرى لاهثًا في دروبه.. وتجسد أمامها إحساس الفجور والملل التى أحستها في الفترة الأخيرة، وبحثها عن شيء آخر في الحياة.. شيء يعطيها متعة أكثر، متعة مختلفة عما عداها من متع وإن كانت حتى الآن لم تعرف طبيعة هذا الشيء..

وطلع النهار.. وهي لم تذق للنوم طعماً.. ولم تنزل في موعد الإفطار ولم يسأل ساكارد عن سر بقائها في مخدعها لأنه شغل بوضع صك بيع الأرض في خزينته.. وإبتسم في إنتصار.. ها هي قد باعت آخر شيء لديها.. ها هي قد أصبحت عبدته.. وسجينته في كل مطالبه، وهكذا ضمن خضوعها الدائم له، إن أرادت شيئًا فلتدفع الثمن ذلاً وخضوعًا.. وكان هذا هو الإنتقام الذي دبره لها منذ وقت طويل.

***

عندما بلغت الساعة العاشرة إرتدت رينيه ملابسها، وكانت الوصيفة قد حملت إليها نبأ زواج مكسيم من لويز هذه الليلة وكان بايتسيت هو الذي أشاع الخبر بين خدم القصر. وإستقبلت رينيه الخبر في جمود، وإن كانت رأت أن تبعد عن القصر هذه الليلة، لأن حالتها النفسية وأعصابها لن يسمحان لها بأن تكون في قصر سوف يغض حتمًا بجموع المدعوين الذين سيحضرون إحتفال الزواج.. ولم تضع رينيه في إعتبارها ما سوف يسببه غيابها من تساؤل أو إن كان تغيبها سوف يغضب سكارد أم لا..

ولذا فقد أمرت أن تجهز لها العربة الصغيرة ذات الحيوان الواحد، فركبتها وطلبت من السائق أن ينطلق إلى بيت الأزياء حيث سددت المبلغ المتبقي عليها. ولم تعد إلى القصر، بل إتجهت إلى منزل والدها.

كان المنزل هادئًا ساكنًا كالعادة وإستقبلها العمه إليزابيث في ترحيب ودخلت بها إلى مسيو بيرود الذي كان جالسًا في مكانه كالعادة يقرأ، فإتجهت إليه وقبلته في صمت ثم خرجت مع العمه ليجلسا في مكان آخر بعيدًا عن صمت الوالد وحتى يكون لديهما فرصه أكبر للحديث..

وهمت رينيه أن تبكي وتلقي بعض هموم نفسها على صدر العمة إليزابيث ولكنها تماسكت فما دامت همومها من صنعها هي، فلتتحملها وحدها.. ولتبحث بمفردها عن طريقة للخلاص منها.. وجاءت كريستين أختها وتشاغل الجميع بمشاهدة مشتريات كريستين من أجل زواجها القريب.

وفي قصر ساكارد وبعد إنصراف المدعوين إقترح ساكارد على مكسيم أن يقوما بجولة بالعربة، يستنشقون فيها بعض الهواء بعيدًا عن جو القصر

المغلق، وكانت خطة ساكارد، أن يحاول يتودد إلى إبنه كي يأخذ منه جزءًا من الدوطة في صورة قرض يسدده له بعد وصوله من رحلته الطويلة مع عروسه، أو أن يستغل له الدوطة كلها في مشروع.. ويقوم معه بنفس اللعبة التي قام بها مع رينيه من قبل..

كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة مساءً وكانت شوارع باريس كلها خالية مظلمة وركب ساكارد وإبنه العربة ولم يرد ساكارد أن يكون بينهما ثالث فيستمع ما سيقولاه ولذا فقد إقترح أن يتولى مكسيم بنفسه قيادة العربة التي إنطلقت في سرعة لا تتناسب مع الظلام، ولا مع الشوارع الخالية، وكان مكسيم يحس بإنقباض وأراد أن ينفس عن إنقباضه بأن يلهب ظهر الجياد بين الحين والآخر يحثها على زيادة السرعة، وجلس والده بجواره يفكر في مدخل مناسب للحديث.

إنحرفت العربة إلى شارع جانبي كان يقود إلى نهر السين في إتجاه عمودي وكان الظلام حالكًا.. حتى المصابيح الصغيرة كان نورها قد ذبل ودفع مكسيم السوط وألهب ظهر الجياد، فجمحت وأسرعت في جنون وأحس مكسيم أن خطرًا ما على وشك الوقوع وحاول أن يجذب مقود الجياد ليخفف سرعتها، ولكن الجياد جمحت ولم يتنبه إلى أن الطريق قد إنتهى ولم يعد مكسيم يفكر في شيء إلا أن يوقف الجياد.. وتناول والده السوط ليضربها لتقف ولكنها قفزت.. وجنحت.. وسقطت في نهر السين.. في منطقة عميقة.. وما هي إلا لحظات، حتى كانت مياه النهر قد إبتلعت العربة بجيادها وراكبيها.

***

طالت زيارة رينيه لمنزل والدها أكثر من المعتاد.. ومرت الساعات بطيئة وهمت رينيه أن تصارحهما بأنها تود أن تقضي الليلة هنا ولكنها جبنت وخافت أن تشفع الرغبة بتبرير.

وفي الساعة السابعة مساءً إستأذنت منصرفة وكانت قد صرفت العربة وسائقها وقبلت والدها وعمتها وشقيقتها ثم خرجت إلى الشارع الذي كان قد كساه الظلام وجذبت خمارها على وجهها حتى لا يتعرف عليها أحد وأخذت تسير من طريق إلى طريق لا تدري لنفسها وجهة ولا تحدد لها مقصدًا..

وقادتها قدماها إلى المنتزه العام فجلست في أحد مقاعده وكان المنتزه خاليًا غارقًا في الظلام وجلست تفكر أين تذهب.. ومرت بها كليلة الأمس صور حياتها.. وإستحكم عليها السؤال.. وماذا بعد ذلك؟ نعم.. وماذا بعد ذلك؟ وتناهي إلى سمعها للمرة الثانية، صوت الأغنية (إننا لن نخطئ أبدًا.. فكفانا ما لاقيته في سبيلنا من عذاب..)

وأحست كأن شعاعًا من نور يغمرها ويضيء داخلها وأن إحساسًا بالراحة قد غمر قلبها..

لقد.. وجدت الشيء الذي طالما بحثت عنه.. الشيء الذي سيعطيها سعادة ليست مثل كل سعادة مرت بها ومتعة تختلف عن كل متعة عرفتها..

وقامت من جلستها وصوت الأغنية يلاحقها حتى وصلت إلى دير مونتمارتر المقام بجوار نهر السين في آخر باريس.. وطرقت الباب.. وبعد لحظات غابت داخله..

وعندما سألتها رئيسة الرهبان عن إسمها قالت:

– أسمي ماري.. ماري.. وكفى..

وسألتها الأخت الكبرى:

– وماذا تبغين يا أختاه..

ردت وهي مغمضة عينها:

– لا شيء.. سوى أن أصير مثلكن..

وأحست كأن آلاف الملائكة يرددون نفس الأغنية:

«إننا لن نخطئ أبداً.. إننا لن نخطئ أبداً..»

الفهرس